مشكلات القرآن

ومشكلات الأحاديث

أو التوفيق بين النصوص المتعارضة

باقلام نوابغ العلماء

محمد عبده . رشيد رضا . أبو الوفا درويش . محمد الغزالى

الناشر

زكريا علي يوسف

مطبعة الامام ١٣ شارع قرقول المنشية بالقلعة - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـــد لله الذى أنزل الكتاب ولم يجعل له عوجا ، وجعله تبياناً لكل شىء ، وأمر باتباعه دون ما سواه ؛ فامتثل الأمر من علموا أنهم عبيد الله ، وليس للعبد أن يستدرك على سيده ، فسعدوا ونجوا ، وأبى ذلك أناس ، وفعلوا فى كتاب الله كما يفعلون فى كتب الناس ، وأكثروا فيه من التأويلات والتخريجات بعقولهم القاصرة الى أن عزلوه عما نزل لأجله : فالحكم والتحاكم الى غيره . ومشاكل الحياة تلتمس لها الحلول من سواه ، والحياة البيتية لا تعرفه ؛ فهم الشقاء والبلاء ، والدواء والله بين أيديهم ولا دواء لهم فى سواه

كالعير فى الصحراء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

لن نسأم من الدعوة الى الرجوع الى القرآن ما دام فينا عرق ينبض ؛ نريد أن يكون هو الامام الذى به نقتدى وبه نهتدى ؛ فيوصلنا الى بر السلامة فى الدنيا والآخرة (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ؛ ونحشره يوم القيامة أعمى)

وقد أعرضنا عن هذا الكتاب واشتغلنا بكتب الفلسفة والتأويل فسرى الينا منها كل شر ؛ وخضنا فيما لم يخض فيه سلفنا الصالح من الكلام فى القدر ورؤية الله تعالى وغير ذلك ؛ فأصابنا ما نحن فيه من التفرق والشتات

غير أن بعض آيات هذا الكتاب قد يصعب فهمها على بعض المدارك ، فالناس متفاوتون فى قوة الفهم ودرجة العلم ، فرأينا أن نجمع هذه الآيات مع ما كتبه عليها أفذاذ العلماء ليعم النفع ، وينسدّ باب التشكيك

كما أن بعض المشتغلين بالحديث النبوى قد تصادفهم بعض الأحاديث التى تتعارض مع بعضها أو مع بعض الايات فنقلنا ما يحل كل اشكال وعلى الله الاتكال

المشكلة الاولى[1]

فى أفعال العباد ونسبتها تارة إليهم وتارة إلى الله تعالى

رفع سؤال إلى مولانا حجة الإسلام وقدوة الأنام الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية ، يطلب صاحبه فيه بيان الجمع بين قوله تعالى (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله ؛ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) وقوله تعالى عقيبها (ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً) فإن بينهما فى بادىء الرأى تنافياً ينزه عنه كلام الله تعالى .

فأجاب رضى الله عنه بقوله :

كان بعض القوم بطراً جاهلا ، إذا أصابه خير ونعمة يقول إن الله تعالى قد أكرمه بما أعطاه من ذلك ، وساقه إليه من خزائن فضله ، عناية منه به لعلو منزلته واذا وصل اليه شر ، وهو المراد من السيئة ، يزعم أن منبع هذا الشر هو النبى صلى الله عليه وسلم وأن شؤم وجوده هو ينبوع هذه السيئات والشرور ؛ فهؤلاء الجاهلون الذين كانوا يرون الخير والشر والحسنة والسيئة يتناوبانهم قبل ظهور النبى صلى الله عليه وسلم وبعده ، كانوا يفرقون بينهما فى السبب الأول لكل منهما ؛ فينسبون الخير أو الحسنة الى الله تعالى ، على أنه مصدرها الأول ؛ ومعطيها الحقيقى يشيرون بذلك الى أنه لا يد للنبى فيه ، وينسبون الشر أو السيئة الى النبى على أنه مصدرها الأول ومنبعها الحقيقى كذلك ، وأن شؤمه هو الذى رماهم بها . وهذا هو معنى «من عند الله » و « من عندك » أى من لدنه ومن خزائن عطائه ، ومن لدنك ومن رزاياك التى ترمى بها الناس

فرد الله عليهم هذه المزاعم بقوله (قل كل من عند الله) أى أن السبب الأول وواضع أسباب الخير والشر ، المنعم بالنعم والرامى بالنقم ، انما هو الله وحده وليس لنبى ولا شؤم مدخل فى ذلك ، فهو بيان للفاعل الأول الذى يرد اليه الفعل

---

(١) الأستاذ الإمام محمد عبده .

فيما لا تتناوله قدرة البشر ، ولا يقع عليهم كسبهم ، وهو الذى كان يعنيه أولئك المشـــاقون عندما يقولون : الحسنة من الله والسيئة من محمد ، أى انه لا دخل لاختيارهم فى الأولى ولا فى الثانية ، وأن الأولى من عنـاية الله بهم ؛ والثانية من شؤم محمد عليهم ، فجاءت الآية ترميهم بالجهل فيما زعموا ، ولو عقلوا لعلموا أن ليس لأحد فيما وراء الأسباب المعروفة فعل : الخير والشر فى ذلك سواء

* * *

هذا فيما يتعلق بمن بيده الأمر الأعلى فى الخير والشر والنعم والنقم ، أما ما يتعلق بسنة الله فى طريق كسب الخير والتوقى من الشر والتمسك بأسباب ذلك ؛ فالأمر على خلاف ما يزعمون كذلك ، فإن الله سبحانه وتعالى قد وهبنا من العقل والقوى ما يكفينا فى توفير أسباب سعادتنا والبعد عن مساقط الشقاء ، فإذا نحن استعملنا تلك المواهب فيما وهبت لأجله وصرفنا حواسنا وعقولنا فى الوجوه التى ننال منها الخير ؛ وذلك انما يكون بتصحيح الفكر واخضاع جميع قوانا لأحكامه وفهم شرائع الله حق الفهم والتزام ما حدده فيها ، فلا ريب فى أننا ننال الخير والسعادة ؛ ونبعد عن الشقاء والتعاسة ، وهـذه النعم انما يكون مصدرها تلك المواهب الإلهية ، فهى من الله تعالى ، فما أصابك من حسنة فمن الله ، لأن قواك التى كسبت بها الخير واستغزرت بها الحسنات ؛ بل واستعمالك لتلك القوى ، انما هو من الله ؛ لأنك لم تأت بشىء سوى استعمال ما وهب الله ، فاتصال الحسنة بالله ظاهر ، ولا يفصلها عنه فاصل لا ظاهر ولا باطن .

وأما إذا أسأنا التصرف فى أعمالنا ، وفرطنا فى النظر فى شئوننا وأهملنا العقل وانصرفنا عن سر ما أودع الله فى شرائعه ، وغفلنا عن فهمه فاتبعنا الهوى فى أفعالنا وجلبنا بذلك الشر على أنفسنا ، كان ما أصابنا من ذلك صادراً عن سوء اختيارنا وإن كان الله تعالى هو الذى يسوقه إلينا جزاء على ما فرطنا ، ولا يجوز لنا أن ننسب ذلك إلى شؤم أحد أو تصرفه ؛ ونسبة الشر والسيئات إلينا فى هـذه الحالة ظاهرة الصحة . فأما المواهب الالهية بطبيعتها فهى متصلة بالخير والحسنات ، وانما

يبطل أثرها إهمالها أو سوء استعمالها ، وعن كلا الأمرين يساق الشر إلى أهله ؛ وهما من كسب المهملين وسيئ الاستعمال ، فحق أن ينسب إليهم ما أصيبوا به وهم الكاسبون لسببه ؛ فقد حالوا بكسبهم بين القوى التى غرزها الله فيهم لتؤدى إلى الخير والسعادة ، وبين ما حقها أن تؤدى اليه من ذلك ، وبعدوا بها عن حكمة الله فيها وصاروا بها الى ضد ما خلقت لأجله ، فكل ما يحدث بسبب هذا الكسب الجديد فأجدر به أن ينسب الى كاسبه

وحاصل الكلام فى المقامين : أنه اذا نظر الى السبب الأول الذى يعطى ويمنع ويمنح ويسلب ؛ وينعم وينتقم ، فذلك هو الله وحده ، ولا يجوز أن يقال ان سواه يقدر على ذلك ، ومن زعم غير هذا فهو لا يكاد يفقه كلاماً ، لأن نسبة الخير الى الله ونسبة الشر الى شخص من الأشخاص بهذا المعنى مما لا يكاد يعقل . فإن الذى يأتى بالخير ، ويقدر على سوقه هو الذى يأتى بالشر ويقدر عليه ؛ فالتفريق ضرب من الخبل فى العقل .

واذا نظرنا الى الأسباب المسنونة التى دعا الله الخلق الى استعمالها ليكونوا سعداء ولا يكونوا أشقياء ، فمن أصابته نعمة بحسن استعماله لما وهب الله فذلك من فضل الله ؛ لأنه أحسن استعماله الآلات التى منّ الله عليه بها ، فعليه أن يحمد الله ويشكره على ما آتاه .

ومن فرط أو أفرط فى استعمال شىء من ذلك فلا يلومن الا نفسه ؛ فهو الذى أساء اليها بسوء استعماله ما لديه من المواهب ، وليس بسائغ له أن ينسب شيئاً من ذلك الى النبى ولا الى غيره ؛ فإن النبى أو سواه لم يغلبه على اختياره ، ولم يقهره على إتيان ما كان سبباً فى الانتقام منه

فلو عقل هؤلاء القوم لحمدوا الله وحمدوك (يامحمد) على ماينالون من خير ؛ فإن الله هو مانحهم ماوصلوا به الى الخير وأنت داعيهم لالتزام شرائع الله وفى التزامها سعادتهم ثم إذا أصابهم شر كان عليهم أن يرجعوا باللائمة على أنفسهم لتقصيرهم فى أعمالهم أو

خروجهم عن حدود الله ، فعند ذلك يعلمون أن الله قد انتقم منهم للتقصير أو العصيان ، فيؤدبون أنفسهم ليخرجوا من نقمته إلى نعمته لأن الكل من عنده ، وإنما ينعم على من أحسن الاختيار ، ويسلب نعمته عمن أساء .

وقد تضافرت الآثار على أن طاعة الله من أسباب النعم ، وأن عصيانه من مجالب النقم ، وطاعة الله إنما تكون باتباع سنته وصرف ما وهب من الوسائل فيما وهب لأجله .

ولهذا النوع من التعبير نظائر فى عرف التخاطب ، فإنك لو كنت فقيراً وأعطاك والدك مثلا رأس مال فاشتغلت بتنميته والاستفادة منه ، مع حسن فى التصرف وقصد فى الإنفاق ، وصرت بذلك غنياً فإنه يحق لك أن تقول : إن غناك إنما كان من ذلك الذى أعطاك رأس مال ، وأعدك به للغنى . أما لو أسأت التصرف فيه وأخذت تنفق منه فيما لا يرضاه ، واطلع على ذلك منك ، فاسترد ما بقى منه ، وحرمك نعمة التمتع به ، فلا ريب أن يقال : إن سبب ذلك إنما هو نفسك . وسوء اختيارها ، مع أن المعطى والمسترد فى الحالين واحد وهو والدك ، غير أن الأمر ينسب إلى مصدره الأول إذا انتهى على حسب ما يريد ، وينسب إلى السبب القريب إذا جاء على غير ما يحب ، لأن تحويل الوسائل عن الطريق التى كان ينبغى أن تجرى فيها إلى مقاصدها إنما ينسب إلى من حوّلها وعدل بها عما كان يجب أن تسير إليه .

وهناك للآية معنى أدق ، يشعر به ذو وجدان أرق ، مما يجده الغافلون من سائر الخلق ، وهو أن ما وجدت من فرح ومسرة ، وما تمتعت به من لذة حسية أو عقلية ؛ فهو الخير الذى ساقه الله إليك واختاره لك ، وما خلقت إلا لتكون سعيداً بها وهبك ، أما ما تجده من حزن وكدر فهو من نفسك ، ولو نفذت بصيرتك إلى سر الحكمة فيما سيق إليك لفرحت بالحزن فرحك بالسار ، وإنما أنت بقصر نظرك تحب أن تختار ما لم يختره لك العليم بك ، المدبر لشأنك ، ولو نظرت إلى العالم نظرة من يعرفه حق المعرفة ، وأخذته كما هو وعلى ما هو عليه ، لكانت المصائب لديك بمنزلة التوابل (١) الحريفة يضيفها طاهيك على ما يهوى لك

(١) هى ما يطيب به الطعام ، كالفافل . واحدها تابل .

من طعام لتزيده حسن أكل ، وتحذ منك الاشتهاء لاستيفاء اللذة ، واستحسنت بذلك طعم ما اختاره الله لك ، ولا يمنعك ذلك من التزام حدوده ، والتعرض لنعمه ، والتحول عن مصاب نقمه ، فإن اللذة التي تجدها في النقمة إنما هي لذة التأديب ومتاع التعليم والتهذيب ، وهو متاع تجتني فائدته ، ولا تلتزم طريقته ، فكما يسر طالب الأدب أن يتحمل المشقة في تحصيله وأن يلتذ بما يلاقيه من تعب فيه ، يسره كذلك أن يرتقي فوق ذلك المقام إلى مستوى يجد نفسه فيه متمتعاً بما حصل ، بالغاً ما أمل ، وفي هذا كفاية لمن يريد أن يكتفي اه .

شعاع آخر

هذا ما كتبه الأستاذ الإمام على هاتين الآيتين ؛ ونحب أن نزيد الأمر وضوحاً ، فننقل ما كتبه الأستاذ الجليل أبو الوفا محمد درويش عليهما ؛ قال رحمه الله :

سألني سائل ذات مرة : كيف توفق بين قول الله تعالى (قل كل من عند الله) وقوله له العزة (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) ؟

ومن اليسير أن ندرك الجواب لو تدبرنا هاتين الآيتين الكريمتين وفهمناهما ، وعرفنا سبب نزولهما :

ذلك أن المنافقين والكافرين الذين كانوا بالمدينة بعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إليها كانوا إذا أصابتهم حسنة : من نزول غيث ، ونماء زرع ، وجودة حاصل قالوا : هذه من عند الله زاعمين أن الله تعالى ما أنعم بها عليهم إلا لكرامتهم عليه ومنزلتهم عنده ، وإذا أصابتهم شدة : من احتباس مطر ، أو جفاف زرع قالوا : هذه من عند محمد ، أي : إنهم كانوا يتشاءمون بقدومه ، ويتطيرون بدعوته ؛ فرد الله عليهم مقالتهم الخاطئة الآثمة ، وقال تعالى مخاطباً نبيه الكريم (قل كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟) أي : إن كلا من الحسنة والسيئة من عند الله ، لوقوعها في ملكه على حسب ما وضع من النواميس ورتب من السنن ، وهيأ من الأسباب وارتباطها بمسبباتها ، وإن هؤلاء القوم ما أتوا إلا من سوء فهمهم ، وقلة فقههم لما يقولون وما يسمعون : ولو أنهم

كانوا على شيء من الفهم والفقه لردوا كل شيء إلى سببه القريب : أو إلى واضع السنن ومسبب الأسباب سبحانه ، ولعلموا أن السيئة لم تقع بشؤم أحد ولا بتأثير دعوة ولا بظهور دين .

وبعد أن بين سبحانه حقيقة الأمر فى الحسنة والسيئة بالنسبة إلى موضوعها وقوانين الوجود ، وسنن الله تعالى فيها ، وأوضح تعالى أن كل شيء مما يحسن وقعه عند الناس أو يسوءهم بهذا الاعتبار ، يضاف إلى رب العزة ، لأنه مسبب الأسباب وواضع النواميس والسنن — أراد سبحانه أن يبين حقيقة الأمر فيها من وجه آخر فقال (ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، وأرسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيدا) .

ومعنى هذا : ان كل حسنة تصيب العبد من صحة وعافية ورزق واعتدال زمان وخصب أرض ونزول غيث وغير ذلك مما يحسن عنده وقعه ، فهى من محض فضل الله عليه ، فهو الذى سخر له المنافع التى بها حياته وحياة ما ينتفع به من حيوان ونبات ؛ وهو الذى أرشده بما وهبه من أنواع الهدايات وبما أنزل عليه من الشرائع والآيات البينات إلى سبيل الانتفاع بهذه الموجودات ، فإذا أحكم العلم وأحسن الاختيار مهتديا بسنن الفطرة ؛ وأحكام الشريعة : كان مغمورا بالخيرات والحسنات ، فقد وهبه الله من العقل والقوى ما يكفيه فى توفير أسباب السعادة ، والبعد عن مزالق الشقاء ، فإذا هو استعمل تلك المواهب فيما خلقت من أجله ، وصرف عقله وحواسه فى الوجوه التى يأتيه منها الخير وفهم شرائع الله تعالى . والتزم ما حده فيها فلا جرم أنه ينال الخير والسعادة . وهذه النعم مصدرها المواهب الالهية . فهى من الله تعالى .

وكل سيئة تصيب العبد فهى من نفسه . لأنه أوتى قدرة على العمل . واختيارا فى تقدير الباعث عليه : من درء المضار وجلب المنافع . وإيثار بعض المقاصد فيخطىء ويوقعه الخطأ فيما يسوءه .

فإذا أساء العبد التصرف فى عمله . وفرط فى النظر فى شئونه . وأهمل العقل وانصرف عن سر ما أودع الله فى سننه الكونية وفى شرائعه واتبع الهوى ومال مع الشهوات : جلب بذلك الشر على نفسه . لأن ربه وهبه هبات ليصرفها فيما ينفعه .

فوجهها بسوء اختياره إلى ما يضره ، فحق أن ينسب إليه ما جنى على نفسه . ويقال له (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) .

وهنا حقيقتان متفقتان ينبغى تدبرهما وفقههما :

الأولى : أن كل شيء من عند الله . بمعنى : أنه خالق الأشياء التى هى مواد المنافع والمضار . وأنه واضع النظام والسنن . ومسبب الأسباب التى توصل إلى هذه الأشياء بسعى الانسان واختياره وكل شيء بهذا الاعتبار فهو حسن لأنه مظهر الحكمة والنظام والابداع الالهى .

الثانية : أن الانسان لا يقع فى شيء يسوءه إلا بتقصيره فى استبانة الأسباب وتعرف السنن والأحكام .

فالمرض - مثلا - من الأمور التى تسوء الانسان . وهو لا يصيبه إلا بتقصيره فى السير على سنن الفطرة فى الغذاء والعمل . فقد ينشأ من تخمة سببتها شهوته . أو من إفراط فى التعب أو الراحة أو من عدم إتقاء أسباب الضرر . كالتعرض للحر أو البرد الشديدين فإذا قصر الانسان فى العلم وأساء الاختيار فى استعمال قواه فى غير ما يقتضيه نظام الفطرة وحاجة الطبيعة : وقع فيما يسوءه . وكان على نفسه جانياً .

فصل

القضاء والقدر أو الجبر والاختيار (١)

الخلاف فى هذا الموضوع بين علماء الأديان والفلاسفة قديم . والكلام فيه متشعب كثير . ولكن المتأمل فى القرآن الكريم والحديث الشريف . المعرض عما سواهما . يخرج منهما بما تطمئن إليه القلوب . وترتاح به النفوس .

اقتضت حكمة الله تعالى أن يخلق هذا العالم كما أراد على أتم نظام وأبدع إحكام . وأن يدبره بعلمه وحكمته خير تدبير . وأن يضع له نواميس دقيقة محكمة . وقوانين ثابتة . وسنناً لا تتحول ولا تتبدل . ترتبط فيها الأسباب بالمسببات . وتعتمد النتائج على المقدمات .

---

(١) الأستاذ الجليل أبو الوفا محمد درويش

هذا النظام الحكيم . هو : القدر .

قال تعالى (إنا كل شيء خلقناه بقدر ٤٩ - القمر) .

وقال جل شأنه (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه . وما ننزله إلا بقدر معلوم ٢١ - الحجر) وقال تعالى (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغو فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء) .

أما القضاء فهو إبراز أثر هذا القانون فى الخارج أى إيجاد الكائنات . وتسييرها على حسب ما قدر الله لها فى الأزل .

فهو كما قال ابن الأثير : كالبناء والقدر كالأساس .

(مثال)

الآلة الميكانيكية . قبل أن تبرز فى الوجود : كان لها فى ذهن المهندس الذى اخترعها صورة واضحة الخطوط والمعالم . ولكنها لا وجود لها فى الخارج . ثم صنعت . فبرزت إلى الوجود . فوجود صورة الآلة فى ذهن المهندس : يشبه القدر . وصنعها وإبرازها فى الخارج : يشبه القضاء .

(الانسان والأقدار)

الأقدار المحيطة بالانسان على ثلاثة أنواع .

الأول : نوع لا يستطيع الانسان دفعه ، مهما يكن له من القوة والبطش . ولا بد أن ينفذ . وأنف الانسان راغم .

الثانى : نوع لا يمكن الانسان أن يقاومه كل المقاومة . ولكن يمكنه تخفيف حدّته ، وتلطيف شدته .

الثالث : نوع جعل الله فى وسع الانسان أن يدفعه ، بل أوجب عليه أن يدفعه : وأن يبذل فى سبيل ذلك كل ما يملك من قوة وجهد .

(تفصيل النوع الاول)

أما القدر الذى هو وراء قدرة الانسان ، ولا تناله قوته ، ولا يستطيع دفعه مهما يكن له من القوة والسلطان : فهو القدر المتصل بنواميس الكون وقوانين الوجود ، وهو القدر الغالب . ابتداء وانتهاء ، فليس فى وسع إنسان أن يقف

دورة الفلك ، أو يأتى بالربيع مكان الخريف ، أو بالشتاء مكان الصيف . أو يمنع صوت المذيع أن يصل إلى الجهاز المستقبـل ، إذا توافق مفتاحه ومفتاح الجهاز المرسل . وتوفرت الأسباب الأخرى ، أو يغير أى ناموس من نواميس الكون أو أية سنة من سنن الوجود

تلك قدرة الله الغالب على أمره القـائم على كل نفس بما كسبت ، الذى له الخلق والأمر . وهو أحكم الحاكمين .

ذلكم هو القدر الذى ينبغى أن يتلقى الإنسان أحكامه بالرضا والتسليم والامتثال وإن رآها شراً ؛ وبالحمد والشكر ، وإن رآها خيراً .

ذلكم هو القدر الذى يشير إليه الله سبحانه بقوله تعالى (ماأصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأهـا . إن ذلك على الله يسير ٢٢ لكيلا تأسوا على ما فاتكم . ولا تفرحوا بما آتاكم . والله لا يحب كل مختال فخور ٢٣ — الحديد) .

وبقوله تعالى (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله . ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم ١١ — التغابن) .

فلو تدبرنا هذه الآيات حق تدبرها لوجدناها تنطق بالحق وتشهد بالصدق ، وتعلن فى صراحة وجلاء : انه سبحانه يدبر الكون بعلمه وحكمته ، وقدرته ومشيئته فلا يقع فيه شىء إلا بإذنه ولوجدنا فيها عزاء للذين تعتريهم الكوارث ، وتمسهم النكبات إذ تنزل السكينة فى قلوبهم ؛ وترد إليهم عازب الصبر ؛ وتلهمهم الرضا والتسليم

ولوجدنا فيها كذلك كبحاً لجماح النفوس السادرة فى غلوائها المدلة بما خولها ربها من الخير والنعمة ، التى يستهويها شيطان الغرور ، فينسيها شكر المنعم . وحمد المتفضل .

(النوع الثانى)

أما القدر الذى لا يستطيع الإنسان أن يقاومه كل المقاومة ، ولكن فى إمكانه تخفيف حدته ؛ وتلطيف شدته : فهو ما يتصل بالغرائز ، والبيئة ؛ والوراثة وما إلى ذلك ؛ فهو غالب ابتداء ؛ ولكنه مخير انتهاء

وتوضيح ذلك : أن الله تعالى قدر على الانسان غريزة حفظ الذات ، وهذه الغريزة جامحة طاغية عنيفة ، لو ألقى حبلها على غاربها لاقتحمت بالانسان مخاطر وهلكات؛ ودفعته إلى أن يظفر بكل ما تمكنه قوته من الظفر به ، غير مبـــال ولا حافل بسواه .

لم يفرض الله تعالى على الإنسان أن ينتزع هذه الغريزة من جذورها ؛ أو يقتلعها من أصولها ؛ لأنها قدر غالب ، لا سبيل إلى دفعه ، ولكنه أمره أن يكبح جماحها ، ويردها عن طغيانها ، وعلمه كيف يخفف من حدة هذا القدر ، وكيف يلطف من جموحه ، فقال تعالى (يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان . إنه لكم عدو مبين ١٦٨ — البقرة) .

وقال تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ١٠ — النساء) .

فترون من هذه النصوص الحكيمة : أن الله سبحانه حظر على الانسان أن يعتدى على حق غيره ، وأن يأكل مالم يكسبه من طريق طيب مباح . وبذلك خفف من حدّة هذه الغريزة وحدّ من طغيانها .

وهنا يشعر الانسان بأنه حر ، مخير بين أن يستجيب لداعى الغريزة الجموح ، وأن يستجيب لأمر الله الحكيم ، الذى لم يكلفه إلا ماله به طاقة .

ونهى سبحانه عن مخالطة الاشرار للتخلص من شرور البيئة ، فقال تعالى (وقد نزّل عليكم فى الكتاب : أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ، ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، إنكم إذاً مثلهم . إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً ١٤٠ — النساء) .

وقال تعالى (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غـــيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ٦٨ وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء . ولكن ذكرى ، لعلهم يتقون ٦٩ — الأنعام) .

وقال صلى الله عليه وسلم « مثل الجليس الصالح ، وجليس السوء : كحامل

المسك ، ونافخ الكير ؛ فحامل المسك : إما أن يحذيك ؛ وإما أن تجد منه ريحاً طيبه ونافخ الكير : إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة » .

فنشأة الانسان فى بيئة خبيثة من القدر الغالب ، الذى لا سلطان له عليه ، وأما محاولة التخلص من شرها ففى وسعه ، ومن أجل ذلك كلفه الله تعالى إياها .

ولكى يقاوم سلطان الوراثة عاب الذين يحرصون على اتباع ما وجدوا عليه آباءهم ، فقال تعالى (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ١٧٠ — البقرة) .

فترون من هذا : أن أقدار الغرائز والبيئات والوراثات غالبة ؛ لا سلطان للانسان عليها ، ولكنه يستطيع أن يصد طغيانها ، ويحد من سيء آثارها ، وأن يلجمها بلجام الحكمة فتكون كلها خيراً نافعاً .

﴿ النوع الثالث ﴾

أما النوع الثالث — وهو الأقدار التى أوجب الله تعالى على الإنسان أن يدفعها — فهى الأقدار المتصلة بالأعمال الاختيارية ، ومنها التكاليف الشرعية ، وهذه هى الأقدار المخيرة ابتداء وانتهاء .

مثال

جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالهدى ودين الحق ، فكذبوه ورموه بما رموه به . وحالوا دون نشر دعوته ؛ وإعلان كلمة الحق ، ولا جرم أن ذلك كله من قدر الله .

فماذا كان من أمره عليه الصلاة والسلام ؟

أتظنون أنه خضع لأحكام هذا القدر ، واستسلم لسلطانه ووقف أمام أعدائه مكتوف اليدين .

أتظنون أنه ترك حبل الدعوة على غاربها ، وقبع فى كسر بيته . انتظاراً لما تأتى به الأقدار ؟

كلا . بل قاوم ، وناضل ، وجاهد ، وقاتل ؛ وبذل كل ما فى وسعه ، وأنفق

جهد طاقته ؛ ليُنحّى أعداء الحق من طريقه ، حتى أيده الله بنصره ، وذلك من قدر الله أيضاً .

فها نحن أولاء قد رأينا الرسول صلى الله عليه وسلم قد دفع قدراً بقدر ، ونحن فى كل حين ندافع أقداراً بأقدار .

فالجوع - مثلا - من القدر ؛ ونحن ندفعه بقدر الطعام ؛ والعطش من القدر ونحن ندفعه بقدر الشراب ، والمرض من القـــدر ، ونحن ندفعه بالدواء ، وهو من القدر أيضاً .

ولو أن أمرأ استسلم لقدر الجوع أو الظمأ - مثلا - وهو قادر على دفعه ثم مات لمات عاصيا لله تعالى الذى نهاه عن أن يلقى بنفسه إلى التهلكة ، فقد قال تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا . إن الله يحب المحسنين ١٩٥ البقرة)

وقال تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم ؛ إن الله كان بكم رحيما) .

وقد أفصح رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا كل الافصاح وأوضحه كل الايضاح ، حين قيل له « يا رسول الله ، أرأيت أدوية نتداوى بها ؛ ورُقى نسترق بها ، وتقى نتقى بها ، أترد من قدر الله شيئا : فقال عليه الصلاة والسلام : هى من قدر الله » .

فانظروا إلى هذا الجواب الحكيم الذى يحفز الهمم الى العمل ويهيب بالناس الى اتخاذ الاسباب والامعان فى الحذر .

وقال أبو عبيدة بن الجراح لعمر بن الخطاب - حين أراد الفرار من الطاعون بالشام - « أتفر من قدر الله ؟ قال : نعم ؛ أفر من قدر الله الى قدر الله »

فياله من جواب سديد ، يدفع فى صدور المثبطين دعاة العجز والضعف والتخاذل

قال تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يُوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون ٦٠ — الأنفال) .

فقد أمرنا الله تعالى بإعداد المستطاع من العدة ، إرهاباً للعدو : والمستطاع : هو ما يدخل فى قدرة الانسان ومُكنته واختياره .

ضلالة

يعتذرون بالقدر ؛ ولو اعتذر لأحدهم خادمه عن تقصيره بالقدر ، لأوسعه تأنيباً وتثريبا ، بل لأقصاه عن خدمته ، وطرده من عمله .

عجزوا عن السعى فى كسب المجد ، وجهلوا أسباب المسببات فراحوا يسترون عجزهم وجهلهم بالاحتماء بالقدر ؛ تمويها وخداعاً ، لا تدينا ولا تقوى .

لولا أن الانسان يشعر كل الشعور بأنه مختار فيما يأتى وما يدع ؛ ولولا أن الطاعات فى وسعه وفى مكنته ، ما نزلت الشرائع ولا جاءت الأوامر والنواهى ؛ ولا أرسل الله الرسل ، ولا أنزل الكتب ، ولا أنذر ولا بشّر ، ولا رغب ولا حذر ، ولا جعل جنة ونعيما ؛ ولا ناراً وجحيما .

لو كان الانسان مجبراً على أعماله الاختيارية لبطل الثواب والعقاب ، والتأديب والتهذيب ، والنصح والارشاد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى الخير والصد عن الشر

جرت عقيدة القدر بالمسلمين شوطين متباينين أشد التباين ، متناقضين أبعد التناقض . فلقد كانت فى أول الأمر دافعة إلى العمل باعثة على الجد ، حاملة على خوض المعارك الدامية وركوب الأخطار الدانية ، واقتحام الاقطار المترامية ، ذلك يوم كانوا يعتقدون أن الآجال مقدرة ، وأن الموت لا يصيب الانسان قبل أجله المسمى وعمره المكتوب ، وأن العمل واجب ، وأن الانسان مخلوق للعمل بما يرضى الله تعالى ، وأن كل إمرىء ميسر لما خلق له .

أجل ، لقد دفعت عقيدة القدر المسلمين الأولين إلى ساحات القتال دفعا ، وألقت بهم بين براثن الموت الزؤام إلقاء ؛ وطوحت بهم إلى أجواز الفضاء ، وأثباج البحار ، دفاعا عن دينهم وذوداً عن حياضهم ، وسعيا وراء أرزاقهم وهم واثقون كل الثقة أنه لن يصيبهم إلا ما كتب الله لهم ، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم ؛ وأن ما أخطأهم لم يكن ليصيبهم ، وأنه ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا : فكان الايمان بالقدر باعثاً دافعا حافزاً مشجعا لا مثبطا ولا مبطئاً .

وهذا خالد بن الوليد البطل المغوار والفارس النجيد والقائد المنجذيقول « لقد خضت كذاوكذا معركة ، وما فى بدنى موضع أنملة إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، وها أنذا أموت على فراشى كما يموت العير ، فلا قرّت أعين الجبناء ! ! » .

أما الآخرون فقد فهموا هذه العقيدة بسوء توجيه المتصوفة فهماً خاذلا مثبطا مُعوقا فقعدوا عن الجد ، وتخاذلوا على التماس المعالى ، وقبعوا فى كسور ديارهم ، ينتظرون الأرزاق التى تسوقها إليهم الأقدار ، بغير سعى ولا جد ، ولا عمل ولا كد ، فخرج الأمر من أيديهم ، وطمع فيهم من كان لا يذب عن نفسه ؛ وغلبهم المغلوبون ، فباءوا بخسران مبين .

(أفعال العباد)

وهذه مسألة كثر فيها الجدال ، وثار فيها غبار النقاش ، وطال الأخذ والرد ، وما كانت لتكون كذلك لولا حرص الناس على الجدل (وكان الانسان أكثر شىء جدلا) .

فكل منا يحس من نفسه أنه يتصرف أنواعا من التصرف ، فهو يأكل ويشرب ويلبس ، ويخلع ويقوم ويقعد ، وأن الانسان يشعر بأنه تام الاختيار فى فعل ما يفعل ، وترك ما يترك ، وكثيراً ما يتردد بين عملين فيفكر ويتروى ، ويوازن بين نتائجهما ، حتى إذا تبين له فضل أحدهما على الاخر ، آثره ومضى فيه .

ولو أردت أن أستدل بآى القرآن الكريم على أن للانسان فعلا اختياريا لأوردت القرآن كله دليلا على ذلك إذ لا يكاد القارىء ينشر المصحف على أية صفحة من صفحاته حتى يجد بدل الآية آيات تنطق بأن للانسان عملا أو فعلا أو كسبا أو سعيا وأنه مسئول عن عمله ومجزى به .

ونرى من أنفسنا الخطأ والنسيان والضلال ، والخضوع لوسوسة الشيطان ، واقتراف الفحشاء والمنكر ، والبغى والظلم والعدوان وغير ذلك من المعاصى والاثام ، ثم التوبة والاستغفار والندم ، وغير ذلك مما لا تصح نسبته إلى الله تعالى ، حقيقة ولا مجازاً ؛ ولا يجوز عقلا ، ولا شرعاً ولا أدبا ولا ذوقاً : أن ينسب إلا إلى فاعله المسئول عنه ؛ المحاسب عليه المجزى به .

اسمعوا إلى قوله تعالى (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما : ١١٠ – النساء) .

هذه آية من كتاب الله تعالى وأمثالها كثير ؛ أسند الله تعالى فيها إلى العبد عمل السوء وظلم النفس والاستغفار وأسند إلى نفسه سبحانه المغفرة والرحمة ؛ فلنسند إلى الله ما أسند إلى نفسه ولنسند إلى العبد ما أسند الله تعالى إليه ، وليس علينا في ذلك جناح .

ولو تدبرنا القرآن كله لوجدناه على هذه الشاكلة فلا نطيل بإيراد الكثير من الايات .

(خطأ يجر إلى خطأ)

فسر بعض المفسرين قول الله تعالى فى شأن إبراهيم وقومه (قال : أتعبدون ما تنحتون ٩٥ والله خلقكم وما تعملون ٩٦ - الصافات) فقالوا : إن (ما) مصدرية ؛ والتقدير خلقكم وخلق عملكم .

وما كان الله ليُلهم الكفار من قوم إبراهيم الحجة عليه بعد أن آتاه الحجة عليهم وأراه ملكوت السموات والأرض ، فكان من الموقنين .

إذ لو كان إبراهيم عليه السلام يريد المعنى الذى ذهب إليه أولئك المفسرون لرد عليه قومه قائلين .

فما بالك تلومنا على أمر لا إرادة لنا فيه . ولا قدرة لنا عليه ، ولا حيلة لنا فى الخلاص منه ، فالله خلقنا وخلق عملنا ؛ أى عبادتنا للاصنام ؛ فلا يوجه إلينا فى ذلك كلام ، ولا تصوب إلينا سهام المعتبة والملام .

ولو كان إبراهيم يقصد ذلك المعنى لقامت الحجة عليه ولاستطاع قومه أن يفحموه ، وما استطاع أن يرد عليهم .

ولكن التفسير الصحيح للآيه الكريمة ، التفسير الحق الذى يساير نصوص القرآن الكريم ولا يجافيها ، ويوافقها ولا ينافيها أن تقدر (ما) اسماً موصولا واقعاً على الأصنام المنحوتة ، ويكون التقدير : أتعبدون هذه الأصنام التى تنحتونها بأيديكم والله خالقكم وخلقها ؟

فالأصنام مخلوقة لله بمادتها وهى الحجر ، ومعمولة لهم بصورتها فالله تعالى خلق الحجارة ، وهم نحتوها وعملوها تماثيل وأصناماً يعبدونها من دون الله .

وبهذا التفسير نهضت حجة إبراهيم على قومه ، وكانت حجتهم داحضة .

(إرادة الله)

وقد يلوم أحدكم بعض من يقترفون المنكر فيدفع عن نفسه بقوله : هذه إرادة الله .

أجل ، هذه إراده الله ، ولكن الله يكره من عباده أن يعملوا الشر وإن وقع بإرادته ، إذ لا يقع فى ملكه إلا ما يشاء وليس معنى المشيئة أنه يحب ذلك الشر ، بل معناها : أن الشر لا يقع على الرغم منه — وحاشا له .

وإرادة الله تعالى لا ترغم العبد على فعل الشر . ولو أن العبد فعل الخير بدل الشر لكان فعل الخير بإرادته سبحانه أيضا .

ولأوضح ذلك لحضراتكم بمثال يقربه إلى الأذهان .

هبوا أن لأحدكم ولدين أمرهما أن يجلسا فى بعض الحجرات وهيأ لهما جميع وسائل الدراسة والاستذكار . وأمرهما أن يحفظا درساً من الدروس . ووعد من يستجيب له بمكافأة حسنة وأنذر من يخالف عقاباً شديداً . ثم جلس غير بعيد منهما ينظر كيف يعملان .

أما أحدهما : فقد استجاب لأمر أبيه وجلس إلى مكتبه ونشر كتابه بين يديه وأخذ يستذكر درسه ويحفظه .

وأما الاخر : فجلس إلى مكتبه قليلا وفتح كتابه . ثم طواه وترك مكانه واتجه نحو الباب يريد الخروج لينغمس فى اللعب بدل الإكباب على الدرس . وأخذ ينظر إلى أبيه فلم يقل له شيئاً ثم خرج غير مبال بوعيد أبيه .

وجاءت ساعة الجزاء .

أما الأول : فكان حافظاً واعياً فنال المثوبة التى وعده أبوه إياها . وأما الاخر : فلم يكن حافظاً فنال عقابه جزاء وفاقا .

فإن قال لأبيه : لقد خرجت بإرادتك وعلى مرأى منك وكنت قادراً على منعى لأنك أقوى منى فلم تمنعنى . فلم تعاقبنى ؟

فلا جرم أن جواب الوالد سيكون هكذا : ولم أمنعك ؟ وقد أمرتك وخيرتك بين المثوبة والعقاب فأبيت إلا أن تختار العقاب فحق عليك ما اخترت ،

أجل كان خروجك بإرادتي ولكني ما كنت أحب منك أن تخرج وتخالف عن أمري

نعم : إن الوالد أقوى من الغلام ولو شاء أن يقسره على البقاء في موضعه واستذكار درسه لفعل ، ولكنه بعد الأمر تركه لاختياره وجعل الثواب أو العقاب جزاء لهذا الاختيار .

ولله المثل الأعلى !

فالله سبحانه بعد أن أنزل الكتاب ، وأرسل الرسول وبيّن الحلال والحرام وأخبر بما أعد للمطيعين ، وما اعتد للعصاة المارقين ترك العباد لاختيارهم ، كما قال تعالى (وقل : الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرادقها ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفقا ٢٩ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) .

وما رميت إذ رميت

وهنا يخيل إليّ أن اعتراضا يختلج في نفس أحدكم وكأنه يقول : فإذا أنت قائل في قوله تعالى في سورة الأنفال (فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى) والحس والمشاهدة قاضيان بأن المسلمين هم الذين قتلوا كفار قريش يوم بدر ، وبأن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي رمى قبضة التراب التي أصابت أعينهم ، وكانت سببا في هزيمتهم ، ولكن الله تعالى يسند القتل والرمي إلى نفسه ، أفليس في هذا دليل على أن العبد لا عمل له ، وأن العمل لله وحده ، وذلك يؤيد مذهب الجبريين .

ودفع هذا الاعتراض يسير ، فإن هذه الآية الكريمة وردت في سورة الأنفال في معرض نهي المسلمين عن التولي يوم الزحف فقد جاء قبلها قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ١٥ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير ١٦ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) .

فكأن الله سبحانه يقول للمؤمنين : ما الذي يحملكم على الفرار ، أو يدفعكم إلى تولي الأدبار ؟ والله تعالى قد كفل تأييدكم ونصركم ، فاذكروا يوم بدر ، وقد كنتم

قلة لا تقوم لكثرة المشركين ؛ ولكن الله تعالى أمكنكم منهم حتى قتلتم سبعين رجلا وإن قوتكم الطبيعية لا تتيح لكم هذا النصر ، ولا تمكنكم من هذا القتل ، فالله تعالى ربط على قلوبكم ، وثبت أقدامكم حتى أظفركم بهم ، وأظهركم عليهم : فلم تقتلوهم بقوتكم الطبيعية الممنوحة للبشر ؛ ولكن الله قتلهم بما خولكم من أسباب النصر والغلب التى لم تكن لتتاح لكم ، لولا فضل الله عليكم وتوفيقه إياكم .

ثم يلتفت إلى خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول له . وحين ألقيت كفاً من التراب فى وجوه المشركين ؛ فأصاب التراب أعينهم جميعاً لم تكن لتدرك ذلك بقوتك الطبيعية الممنوحة للبشر ولكن الله تعالى هو الذى كثر ذلك التراب بمحض قدرته وأوصله إلى أعينهم حتى ثقلوا بها عن الالتفات لمن يقاتلهم .

فإن كان النبى صلى الله عليه وسلم قد رمى التراب فإنه لم يكن بوسعه أن يوصله إلى أعينهم جميعا ؛ فذلك من فعل الله وحده ، كما ألقى موسى عليه السلام العصى فكانت حية تسعى ؛ فإلقاء العصى عمل موسى ، ولكن قلبها حية عمل الله تعالى وحده ؛ وكذلك إلقاء التراب عمل النبى ؛ ولكن توصيله إلى أعين المشركين على الرغم من بُعدهم عن مكان الرمى ؛ وكثرتهم واختلاف اتجاههم — هو عمل الله تعالى ؛ ولذلك صح أن يسند الرمى إلى النبى وينفى عنه أثره ويسند إلى رب العزة ؛ فقد أسند إلى النبى ﷺ الذى كان منه ؛ وهو تناول قبضة من التراب وإلقاؤها ، ونفى عنه الرمى الذى هو توصيل ذلك التراب إلى أعين المشركين ، وهو لم يكن فى وسع النبى صلى الله عليه وسلم ولكنه فعل الله تعالى وحده .

هذا القرآن فوق النزغات والأهواء الجدلية ووراء الفِرق والمذاهب

وربما اختلج فى بعض النفوس سؤال آخر :

ماذا أنت قائل فى قوله تعالى (كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) أفلا يدل على أن الهدى والضلال بيد الله تعالى وليس للعبد فيهما كسب ولا عمل ؟

ويثلج صدر السائل ، ويقر عينه أن يعلم أن الله تعالى حكيم ، والحكيم يضع الأشياء فى مواضعها ، ولا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة ؛ وينبغى أن نفسر آيات القرآن الحكيم بعضها على ضوء بعض ، حتى لا نكون كالذين جعلوا القرآن عضين .

وقد قال تعالى (إن سعيكم لشتى ٤ فأما من أعطى واتقى ٥ وصدق بالحسنى ٦ فسنيسره لليسرى ٧ وأما من بخل واستغنى ٨ وكذب بالحسنى ٩ فسنيسره للعسرى ١٠ — الليل)

فدل سبحانه بهذا القول الحكيم على أن أعمال العباد مختلفة وعلى أنها مقدمات تفضى إلى نتائجها ، وأسباب تؤدى إلى مسبباتها ، فمن أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسييسره الله للحسنى ؛ وذلك هو الذى يشاء الله أن يهديه . ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره الله للعسرى ، وذلك هو الذى يشاء الله أن يضله .

وقد رأيتم أن هناك اختياراً من جانب العبد واتجاهاً وعملا ، ومن فضل الله ورحمته أن الذى يختار الخير ويتجه إليه يعينه الله تعالى عليه وييسره له ، كما قال تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ١٧ محمد) وكما قال تعالى (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مردا ٧٦ مريم)

وأما الذين يختارون الشر ويتجهون إليه ، فإن الله تعالى يوليهم ما تولوا ؛ ويتركهم وما اختاروا لأنفسهم ، كما قال تعالى (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا ١١٥ - النساء)

وهذا معنى إضلالهم ؛ فمن حيث إن الله سبحانه دعاهم إلى طريق الخير . وسبيل الهداية على لسان رسله . وفى كتبه المنزلة بعد أن منحهم من أنواع الهدايات ما فيه بلاغ ، فأبوا أن يستجيبوا لداعى الحق ، واستكبروا أن يسلكوا سبل الرشد ؛ فلا جرم أنه يتركهم وما اختاروا لأنفسهم ؛ فلا يأتى إضلاله إياهم إلا بعد اتجاههم إلى الشر وإعراضهم عن الخير . قال تعالى (وما يضل به إلا الفاسقين ٢٦ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون ٢٧ - البقرة)

فترون من هذا النص الكريم أن الذين وقع عليهم الاضلال هم الموصوفون بما ذكر ، فالاضلال قد وقع على فاسقين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض ، فهو نتيجة مترتبة على

مقدمات أتوا بها ومسبب عن أسباب ؛ وهو ليس إلا تركهم يسيرون فى الطريق الذى اختاروا سلوكه .

ولو وقع الاضلال على صالحين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويصلحون فى الأرض ؛ لقلنا إن الله أرغمهم على الضلال ؛ وحاشا لله

أحاديث ظاهرها الجبر

١ — « احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى . قال موسى : أنت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته وأسكنك فى جنته ، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض ؟ فقال آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شىء أفتلومنى على أن عملت عملا كتبه الله علىّ أن أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فحج آدم موسى » رواه البخارى ومسلم

الاحتجاج بالقدر والاعتذار به عن المعاصى باطل عقلا وشرعا ، لأنه يسوّغ للكافر أن يحتج به على كفره فيصير معذوراً ويصير تعذيبه ظلماً ، ويكون عذراً لابليس فى إبائه السجود لآدم ، ومن جهة ثانية : لو كان القدر حجة لكان حجة لموسى فى لومه لآدم ؛ فكان يقول له « أتلومنى يا آدم على لومى لك وقد كتبه الله علىّ وقدّر أن ألومك ؟ فتكون لموسى الحجة على آدم

وأيضا قد صرح القرآن بأن آدم وحواء اعترفا بذنبهما وقالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) ولو كان آدم يرى أنه معذور بالقدر لما اعترف بذنبه .

إذاً كيف نفهم هذا الحديث ؟ واليك الجواب :

لم تقع المحاجة بين آدم وموسى الا بعد أن تاب آدم من ذنبه وتاب الله عليه وغفر له .

والملامة على الذنب يراد بها زجر المذنب لئلا يعود ، أما اذا أذنب ثم تاب توبة نصوحا وقبلت توبته فلا يجوز أن يلام ؛ لأن المراد منه حينئذ الاساءة

والتوبيخ . وهذا لا يحل . ألا ترى أننا لو لمنا من ترك الصلاة بعد أن تاب وحافظ عليها كنا أحق باللوم منه ؟ وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقر خالد على لومه للمرأة التى اعترفت بالزنا فجاءت تائبة الى النبى ﷺ وطلبت الرجم فرجمها .

فإن قلت : هذا صحيح لولا أن ظاهر الحديث أن آدم دفع عن نفسه بالقدر لا بالتوبة . قلت لا شك انه اذا كان للأمر سببان جاز الاقتصار على أحدهما وطى الآخر ؛ مثال ذلك أن ترى من يطلب عاملا فتقول له استعمل فلانا فإنه مسلم وتطوى « وأمين وكف » ، وقد يقال لك لم تحب فلانا ؟ فتقول لأنه مؤمن وتطوى « وصالح » ، وهذا كثير معروف

٢ — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لن يدخل أحد الجنة بعمله . قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ قال ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمة » ، وظاهر هذا الحديث أن الأعمال لا علاقة بينها وبين دخول الجنة

ونقول : نعم ، ان دخول الجنة بمحض فضل الله ، وأما منازلها ودرجاتها فبحسب الأعمال .

٣ — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » الخ .

ونقول : يجب أن ننظر فى جميع روايات الحديث وألفاظه حتى يتبين لنا المراد وقد ثبت فى عدة روايات له « ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع الخ . وهذا يحل الاشكال لأن هذا الرجل كان منافقا يرائى الناس بعمله ولم يكن مخلصا فيه لله ، والله لايقبل من العمل الا ما كان خالصا له فاستحق هذه الخاتمة (وما ربك بظلام للعبيد)

وعلى هذا فالجملة الثانية من الحديث « وان الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » تفيد أن هناك من يعمل السيئات على استحياء وانقباض ؛ فلا ينشرح بها ولا يبتهج بها ولا يفتخر بها ؛ ويصحو ضميره بين الحين والحين ولكن دوافع البيئة وسورة الشباب والعادة تتغلب عليه ؛ فمثل هذا استحق أن يتداركه الله برحمته .

كلمة أخيرة

ورد فى البخارى وغيره أن رجلا اسمه ماعز ارتكب فى حالة غفلة من الضمير جريمة الزنا ، فلما استيقظ ضميره جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره وطلب منه أن يقيم عليه الحد ، وما أدراك ما الحد ؟ انه الموت على أشنع صورة ، وبعد أن سأله الرسول بضعة أسئلة وتبين له صدقه أقام عليه الحد .

يؤخذ من هذا الحديث بكل سهولة ووضوح .

أولا : ان ماعزا لم يره أحد ساعة ارتكابه للجريمة وكان فى امكانه أن لا يذهب إلى النبى ولكنه ذهب وأخبره .

ثانيا : انه لم يتخلف عن الذهاب ويحتج بالقدر وأنه مكتوب عليه .

ثالثا : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاول أن يصرفه قبل أن تثبت عليه الجريمة عدة مرات ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يحتج له بالقدر .

والتعلل بمشيئة الله سبحانه فى اجتراح السيئات شأن المشركين ومن على سبيلهم وقد رد الله عليهم بقوله (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا . .) واتفقت كلمة أهل السنة على أنه لا حجة للعاصى فى الاستناد فى معصيته على مشيئة الله وأن للعباد أفعالا إختيارية بها يثابون وعليها يعاقبون وأن مشيئة الله ليست بسالبة لاختيارهم وإرادتهم ، والمسألة مفروغ منها فى الكتب الكلامية بحثاً وتمحيصاً من جميع مناحيها فاكتفينا بهذه الاشارة .

المشكلة الثانية[1]

(وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ، ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ، وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ، ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) .

يعلم كل ناظر في كتابنا الإلهي (القرآن) ما رفع الاسلام من شأن الأنبياء والمرسلين ، والمنزلة التي أحلهم من حيث هم حملة الوحي ، وقدوة البشر في الفضائل وصالح الأعمال ، وتنزيهه إياهم عما رماهم به أعداؤهم وما نسبه إليهم المعتقدون بأديانهم ؛ ولا يخفى على أحد من أهل النظر في هذا الدين القويم أنه قد قرر عصمة الرسل كافة من الزلل في التبليغ ، والزيغ عن الوجهة التي وجه الله وجوههم نحوها من قول أو عمل ، وخص خاتمهم محمداً صلى الله عليه وسلم فوق ذلك بمزايا فصلت في ثنايا الكتاب العزيز .

عصمة الرسل في التبليغ عن الله أصل من أصول الاسلام ، شهد به الكتاب وأيدته السنة ، وأجمعت عليه الأمة ، وما خالف فيه بعض الفرق فإنما هو في غير الإخبار عن الله تعالى وإبلاغ وحيه إلى خلقه ، ذلك الأصل الذي اعتمدت عليه الأديان حق لا يرتاب فيه ملي يفهم ما معنى الدين .

مع ذلك لم يعدم الباطل فيه أعوانا يعملون على هدمه . وتوهين ركنه . أولئك عشاق الروايات وعبدة النقل : نظروا نظرة في قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) وفيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من أن « تمنى » بمعنى قرأ والأمنية القراءة ، فعمي عليهم وجه التأويل الحق على فرض صحة الرواية عن ابن عباس . فذهبوا يطلبون ما به يصح التأويل في زعمهم . فقيض لهم من يروي في ذلك أحاديث تختلف طرقها ، وتتباين

---

(١) بقلم الأستاذ الامام ، نشرت في (م ٤ منار)

ألفاظها وتتفق فى أن النبى صلى الله عليه وسلم عندما بلغ منه أذى المشركين مابلغ ، وأعرضوا عنه وجفاه قومه وعشيرته لعيبه أصنامهم . وزرايته على آلهتهم ، أخذه الضجر من إعراضهم ، ولحرصه على إسلامهم وتهالكه عليه تمنى أن لا ينزل عليه ما ينفرهم ، لعله يتخذذلك طريقا إلى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم وعنادهم ، فاستمر به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة (والنجم إذا هوى) وهو فى نادى قومه ، وروى أنه كان فى الصلاة ؛ وذلك التمنى آخذ بنفسه ؛ فطفق يقرؤها فلما بلغ قوله (ومناة الثالثة الأخرى) ألقى الشيطان فى أمنيته التى تمناها بأن وسوس له بما شبهها به فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط فمدح تلك الأصنام ، وذكر أن شفاعتهن ترجى ؛ فمنهم من قال أنه عند ما بلغ (ومناة الثالثة الأخرى) سها فقال « تلك الغرانيق العلى ، وأن شفاعتهن لترتجى : ومنهم من روى (الغرانقة العلى) ومنهم من روى إن شفاعتهن ترتجى بدون ذكر الغرانقة والغرانيق ، ومنهم من قال انه قال (وانها لمع الغرانيق العلى) ومنهم من روى : وأنهن لهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى ، ففرح المشركون بذلك وعندما سجد فى آخر السورة سجدوا معه جميعاً ؟ !

قال ابن حجر العسقلانى : وتعدد الطرق وصحة ثلاثة منها وإن كانت مرسلة يدل على أن للواقعة أصلا صحيحا ، وهذه الأسانيد الصحيحة - فى رأيه - وإن كانت مراسيل يحتج بها من يرى الاحتجاج بالحديث المرسل بل ومن لا يراه كذلك ، لأنها متعددة يعضد بعضها بعضاً اه ، ولولا خوف التطويل لأتيت بجميع تلك الروايات ما صح عنده منها وما لم يصح ولكن لا أرى حاجة إليه فى مقالى هذا .

روى ذلك ابن جرير الطبرى وشايعه عليه كثير من المفسرين وفى طباع الناس إلف الغريب ، والتهافت على العجيب ، فولعوا بهذه التفاسير واتخذوها عقدة إيمانهم ، حتى ظنوا - وبعض الظن إثم - أن لا معدل عنها ، ولا سبيل فى فهم الآية سواها ، ونسوا ما رآه جمهور المحققين فى تأويلها ، وذهب إليه الأئمة فى بيانها حتى ثارت ثائرة الشبه هذه الأيام فى نفوس كثير منهم وهم يزعمون أنهم مسلمون ، وأحسوا أن ذلك الضرب من التفسير ، لا يتفق مع أصل العصمة فى التبليغ ، وأن فيه من الحجة للعدو ما لا سبيل إلى دفعه ، فلجأوا إلى أهل العلم الصحيح يلتمسون

منهم بيان المخرج مما سقطوا فيه وتوهموا أنهم يقررون لهم ما ألفوا ، ثم ينقذونهم من الحيرة مع ثباتهم على ما حرفوا ، ولكن ضل رأيهم وخاب ظنهم وسيقامون على النهج ، ويرون الحق ناصعاً أبلج .

فى صحيح البخارى : وقال ابن عباس فى (إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه ، فيبطل الله مايلقى الشيطان ويحكم الله آياته ، ويقال أمنيته قراءته « إلا أمانى » يقرءون ولا يكتبون اه . فتراه حكى تفسير الأمنية بالقراءة بلفظ (يقال) بعد ما فسرها بالحديث رواية عن ابن عباس ، وهذا يدل على المغايرة بين التفسيرين ، فما يدعيه الشراح أن الحديث فى رأى ابن عباس بمعنى التلاوة يخالف ظاهر العبارة ثم حكايته تفسير الأمنية بمعنى القراءة بلفظ (يقال) يفيد أنه غير معتبر عنده (وسيأتى أن المراد بالحديث حديث النفس) .

وقال صاحب الإبريز إن تفسير تمنى بمعنى قرأ والأمنية بمعنى القراءة مروى عن ابن عباس فى نسخة على بن أبى طلحة عن ابن عباس ورواها على بن صالح كاتب الليث عن معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، وقد علم ما للناس فى ابن أبى صالح كاتب الليث وأن المحققين على تضعيفه اه ـ هذا ما فى الرواية عن ابن عباس ، وهى أصل هذه الفتنة وقد رأيت أن المحققين يضعفون راويها .

وأما قصة الغرانيق فمع مافيها من الاختلاف الذى سبق ذكره جاء فى تتميمها أن النبى ﷺ لم يفطن لما ورد على لسانه وأن جبريل جاءه بعد ذلك فعرض عليه السورة فلما بلغ الكلمتين قال له ماجئتك بهاتين فحزن لذلك ، فأنزل الله عليه (وما أرسلنا) الايات ـ تسلية له ، كما أنزل بذلك قوله (وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا ؛ إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً) وفى بعض الروايات أن حديث الغرانيق فشا فى الناس حتى بلغ أرض الحبشة فساء ذلك المسلمين والنبى ﷺ فنزلت (وما أرسلنا) الاية ـ قال القسطلانى فى شرح البخارى : وقد طعن فى هذه القصة وسندها غير واحد من الأئمة ، حتى قال ابن إسحاق وقد سئل عنها : هى من وضع الزنادقة اه وكفى فى إنكار حديث أن يقول فيه ابن إسحاق انه من وضع الزنادقة مع حال ابن إسحاق المعروفة عند المحدثين ـ أى تساهله وضعفه .

وقال القاضى عياض : إن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه أحد بسند متصل سليم ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم ، ثم نقل عن أبى بكر بن العلاء ما يدل على سقم الرواية واضطراب الرواة فيها وما يقضى عليها بالوهن والسقوط عن درجة الاعتبار ، وقال الامام أبو بكر بن العربى — وكفى به حجة فى الرواية والتفسير — : إن جميع ما ورد فى هذه القصة لا أصل له .

قال القاضى عياض : والذى ورد فى الصحيح أن النبى ﷺ قرأ (والنجم) وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس اه ، وقد يكون ذلك لبلاغة السورة ، وشدة قرعها ، وعظم وقعها ؛ ثم قال القاضى : قد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن هذه الرذيلة ، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر ؛ أو أن يتسود عليه الشيطان ، ويشبه عليه القرآن ، حتى يجعل فيه ما ليس منه ، ويعتقد النبى ﷺ أن من القرآن ما ليس منه حتى يفهمه جبريل عليه السلام وذلك كله ممتنع فى حقه ﷺ ، أو يقول ذلك النبى ﷺ من قبل نفسه عمداً وذلك كفر — أو سهواً وهو معصوم من هذا كله ، وقد قررنا بالبراهين والاجماع عصمته ﷺ من جريان الكفر على لسانه أو قلبه لا عمداً ولا سهواً أو أن يشبه عليه ما يلقيه الملك بما يلقى الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل . أو أن يتقول على الله — لا عمداً ولا سهواً — ما لم ينزل عليه . وقد قال تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) وقال (إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً) .

(ووجه ثان) وهو استحالة هذه القصة نظراً وعرفاً وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روى لكان بعيد الالتئام متناقض الأقسام . ممتزج المدح بالذم . متخاذل التأليف والنظم . ولما كان النبى (ص) ومن بحضرته من المسلمين . وصناديد المشركين . ممن يخفى عليه ذلك وهذا لا يخفى على أدنى متأمل فكيف بمن رجح حلمه واتسع فى باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه ؟

(ووجه ثالث) انه علم من عادة المنافقين ومعاندة المشركين وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة وتخليط العدو على النبى صلى الله عليه وسلم

لأقل فتنة ؛ وتعييرهم المسلمين والشماتة بهم الفينة بعد الفينة وارتداد من فى قلبه مرض ممن أظهر الاسلام لأدنى شبهة . ولم يحك أحد فى هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل ؛ ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة ، كما فعلوا مكابرة فى قصة الاسراء . قال : ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت . ولا تشغيب المعادى حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت . وما ورد عن معاند فيها كلمة ، ولا عن مسلم بسببها بنت شفة ، فدل على بطلها واجتثاث أصلها ، ولا شك فى إدخال بعض شياطين الانس والجن هذا الحديث على بعض مغفلى المحدثين ؛ ليلبس به على ضعفاء المسلمين

(ووجه رابع) ذكر الرواة لهذه القصة أن فيها نزلت (وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك) الآيتان — هاتان الآيتان تردان الخبر الذى رووه ، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ولولا أن ثبته لكاد يركن إليهم شيئا قليلا ؛ فمضمون هذا ومفهومه أن الله عصمه من أن يفترى وثبته حتى لم يركن اليهم قليلا فكيف كثيراً ؟

وهم يروون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم ، وأنه صلى الله عليه وسلم قال : افتريت على الله وقلت ما لم يقل . وهى تضعف الحديث لو صح ؛ فكيف ولا صحة له ؟ وهذا مثل قوله تعالى فى الاية الأخرى (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء)

قال القشيرى : ولقد طالبته قريش وثقيف إذ مر بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها ووعدوه الايمان به إن فعل فما فعل ولا كان ليفعل . قال ابن الأنبارى : ما قارب الرسول ولا ركن . انتهى المطلوب من كلام القاضى رحمه الله ، وقد أورد بعد ذلك كثيراً من القول فى توهين الرواية وتكذيبها

أما ماذكره ابن حجر من أن القصة رويت مرسلة من ثلاث طرق على شرط الصحيح وأنه يحتج بها الخ ما سبق فقد ذهب عليه — كما قال فى الابريز — إلى أن العصمة من العقائد التى يطلب فيها اليقين فالحديث الذى يفيد خرمها ونقضها

لا يقبل على أى وجه جاء ، وقد عد الأصوليون الخبر الذى يكون على تلك الصفة من الأخبار التى يجب القطع بكذبها ، هذا لو فرض اتصـــال الحديث ، فما ظنك بالمراسيل ؛ وإنما الخلاف فى الاحتجاج بالمرسل وعدم الاحتجاج به فيما هو من قبيل الأعمال وفروع الأحكام ، لا فى أصول العقائد ومعاقد الإيمان بالرسل وما جاءوا به ، فهى هفوة من ابن حجر يغفرها الله له

هذا ما قاله الأئمة جزاهم الله خيراً فى بيان فساد هذه القصة وأنها لا أصل لها ، ولا عبرة برأى من خالفهم فلا يعتد بذكرها فى بعض كتب التفسير . وإن بلغ أربابها من الشهرة ما بلغوا . وشهرة المبطل فى بطله لا تنفخ القوة فى قوله ، ولا تحمل على الأخذ برأيه :

(تفســـير الآيات)

والان أرجع إلى تفسير الايات على الوجه الذى تحتمله ألفاظها وتدل عليه عباراتها والله أعلم .

لا يخفى على كل من يفهم اللغة العربية وقرأ شيئا من القرآن أن قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) الايات يحكى قدراً قدر (بتشـــديد الدال وكسرها) للمرسلين كافة لا يعدونه ، ولا يقفون دونه ويصف شنشنة عرفت فيهم وفى أممهم ، فلو صح ما قال أولئك المفسرون لكان المعنى أن جميع الأنبياء والمرسلين قد سلط الشيطان عليهم ، فخلط فى الوحى المنزل اليهم ، ولكنه بعد هذا الخلط ينسخ الله كلام الشيطان ويحكم الله آياته الخ وهذا من أقبح ما يتصور متصور فى اختصاص الله تعالى لأنبيائه واختيارهم من خاصة أوليائه . فلندع هذا الهذيان ولنعد إلى ما نحن بصدده .

ذكر الله لنبيه حالا من أحوال الأنبياء والمرسلين قبله ليبين له سننه فيهم ، وذلك بعد أن قال (وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير) إلى آخر الايات .

ثم قال (قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ؛ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات

لهم مغفرة ورزق كريم ، والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم . وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) الخ .

فالقصص السابق كان فى تكذيب الأمم لأنبيائهم ثم تبعه الأمر الإلهى بأن يقول النبى ﷺ لقومه : إنى لم أرسل إليكم إلا لأنذركم بعاقبة ما أنتم عليه ولأبشر المؤمنين بالنعيم ؛ وأما الذين يسعون فى الايات والأدلة التى أقيمها على الهدى وطرق السعادة : ليحولوا عنها الأنظار ويحجبوها عن الابصار ، ويفسدوا أثرها الذى أقيمت لأجله ويعاجزوا بذلك النبى ﷺ والمؤمنين — أى يسابقونهم ليعجزوهم ويسكتوهم عن القول ، وذلك بلعبهم بالالفاظ وتحويلها عن مقصد قائلها — كما يقع عادة من أهل الجدل والمماحكة — هؤلاء الضالون المضلون هم أصحاب الجحيم وأعقب ذلك بما يفيد أن ما ابتلى به النبى ﷺ من المعاجزة فى الايات قد ابتلى به الانبياء السابقون ، فلم يبعث نبى فى أمة إلا كان له خصوم يؤذونه بالتأويل والتحريف ، ويضادون أمانيه ويحولون بينه وبين ما يبتغى بما يلقون فى سبيله من العثرات : فعلى هذا المعنى الذى يتفق مع ما لقيه الانبياء جميعا يجب أن تفسر الاية وذلك يكون على وجهين :

(الأول) أن يكون تمنى بمعنى قرأ والأمنية بمعنى القراءة وهو معنى قد يصح وقد ورد استعمال اللفظ فيه . قال حسان بن ثابت فى عثمان رضى الله عنهما :

تمنى كتاب الله أول ليله وآخره لاقى حمام المقادر

غير أن الالقاء لا يكون على المعنى الذى ذكروه بل على المعنى المفهوم من قولك « ألقيت فى حديث فلان » إذا أدخلت فيه ما ربما يحتمله لفظه ولا يكون قد أراده أو نسبت اليه ما لم يقله تعللا بأن ذلك الحديث يؤدى اليه ؛ وذلك من عمل المعاجزين الذين ينصبون أنفسهم لمحاربة الحق يتبعون الشبهة ويسعون وراء الريبة . فالالقاء بهذا المعنى دأبهم ، ونسبة الالقاء إلى الشيطان لأنه مثير الشبهات بوساوسه ، مفسد القلوب بدسائسه ، وكل ما يصدر من أهل الضلال يصح أن ينسب اليه ويكون المعنى : وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا حدث قومه عن ربه أو تلا وحياً أنزل اليه فيه هدى لهم ، قام فى وجهه مشاغبون يحولون ما يتلوه عليهم

عن المراد منه ويتقولون عليه ما لم يقله ، وينشرون ذلك بين الناس ليبعدوهم عنه ويعدلوا بهم عن سبيله ، ثم يحق الله الحق ويبطل الباطل ولا زال الأنبياء يصبرون على ما كذبوا وأوذوا ويجاهدون فى الحق ولا يعتدون بتعجيز المعجزين ولا بهزء المستهزئين إلى أن يظهر الحق بالمجاهدة وينتصر على الباطل بالمجالدة ؛ فينسخ الله تلك الشبهة ويجتثها من أصولها ويثبت آياته ويقررها . وقد وضع الله هذه السنة فى الناس ليميز الخبيث من الطيب فيفتتن الذين فى قلوبهم مرض وهم ضعفاء العقول بتلك الشبه والوساوس فينطلقون وراءها ، ويفتتن بها القاسية قلوبهم من أهل العناد والمجاحدة فيتخذونها سنداً يعتمدون عليها فى جدلهم ؛ ثم يتمحص الحق عند الذين أوتوا العلم ويخلص لهم بعد ورود كل شبهة عليه فيعلمون أنه الحق من ربك فيصدقون به فتخبت وتطمئن له قلوبهم . والذين أوتوا العلم هم الذين رزقوا قوة التمييز بين البرهان القاطع الذى يستقر بالعقل فى قرارة اليقين ، وبين المغالطات وضروب السفسطة التى تطيش بالفهم وتطير به مع الوهم ، وتأخذ بالعقل تارة ذات الشمال وأخرى ذات اليمين ؛ وسواء أرجعت الضمير فى « أنه الحق » إلى ما جاءت به الآيات المحكمة من الهدى الإلهى أو إلى القرآن وهو أجلها ، فالمعنى من الصحة على ما يراه أهل التمكين .

هؤلاء الذين أوتوا العلم هم الذين آمنوا وهم الذين هداهم الله إلى الصراط المستقيم ولم يجعل للوهم عليهم سلطاناً فيحيد بهم عن ذلك النهج القويم وأما الذين كفروا وهم ضعفاء العقول ومرضى القلوب أو أهل العناد وزعماء الباطل وقساة الطباع الذين لا تلين أفئدتهم ولا تبش للحق قلوبهم ، فأولئك لا يزالون فى ريب من الحق أو الكتاب لا تستقر عقولهم عليه ولا يرجعون فى متصرفات شئونهم اليه ، حتى تأتى ساعة هلاكهم بغتة فيلاقوا حسابهم عند ربهم ؛ أو إن امتد بهم الزمن ومادهم الأجل ، فسيصيبهم « عذاب يوم عقيم » يوم حرب يسامون فيه سوء عذاب القتل أو الأسر ، ويقذفون إلى مطارح الذل وقرارات الشر ، فلا ينتج لهم من ذلك اليوم خير ولا بركة ، بل يسلبون ما كان لديهم ويسافرون إلى مصارع الهلكة ، وهذا هو العقم فى أتم معانيه وأشأم درجاته

ما أقرب هذه الآيات فى مغازيها إلى قوله تعالى فى سورة آل عمران (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات؛ فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب)

وقد قال بعد ذلك (إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار) ثم قال (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد) الخ الايات ، وكأن إحدى الطائفتين من القرآن شرح للأخرى فالذين فى قلوبهم زيغ هم الذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، والراسخون فى العلم هم الذين أوتوا العلم ، وهؤلاء هم الذين يعلمون أنه الحق من ربهم فيقولون آمنا به كل من عند ربنا فتخبت له قلوبهم وان الله ليهديهم الى صراط مستقيم ؛ وأولئك هم الذين يفتتنون بالتأويل ؛ ويشتغلون بقال وقيل بما يلقى اليهم الشيطان ويصرفهم عن مرامى البيان ؛ ويميل بهم عن محجة الفرقان ؛ وما يتكئون عليه من الاموال والأولاد لن يغنى عنهم من الله شيئا فستوافيهم آجالهم وتستقبلهم أهوالهم ، فإن لم يوافهم الأجل على فراشهم فسيغلبون فى هراشهم ، وهذه سنة جميع الأنبياء مع أممهم ؛ وسبيل الحق مع الباطل من يوم رفع الله الانسان الى منزلة يميز فيها بين سعادته وشقائه ، وبين ما يحفظه وما يذهب ببقائه ، وكما لا مدخل لقصة الغرانيق فى آيات آل عمران لا مدخل لها فى آيات سورة الحج

(الوجه الثانى فى تفسير الآيات)

إن التمنى على معناه المعروف وكذلك الأمنية وهى أفعولة بمعنى المنية وجمعها أمانى كما هو مشهور . قال أبو العباس أحمد بن يحيى : التمنى حديث النفس بما يكون وبما لا يكون . قال والتمنى سؤال الرب . وفى الحديث « إذا تمنى أحدكم فليتكثر فإنما يسأل ربه » وفى رواية « فليكثر[1] »

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط عن عائشة رضى الله عنها

وقال ابن الأثير : التمنى تشهى حصول الأمر المرغوب فيه وحديث النفس بما يكون ومالا يكون . وقال أبو بكر تمنيت الشيء إذ قدرته وأحببت أن يصير إلىّ ؛ وكل ما قيـــل فى معنى التمنى على هذا الوجه فهو يرجع إلى ما ذكرنا ويتبعه معنى الامنية .

ما أرسل الله من رسول ولا نبى ليدعو قوماً إلى هدى جديد أو شرع سابق شرعه لهم ويحملهم على التصديق بكتاب جاء به نفسه إن كان رسولا أو جاء به غيره إن كان نبياً بعث ليحمل الناس على اتباع من سبقه ـ إلا وله أمنية فى قومه وهى أن يتبعوه وينحازوا إلى مايدعوهم إليه ، ويستشفوا من داثهم بدوائه ويعصوا أهواءهم بإجابة ندائه ، وما من رسول أرسل إلا وقد كان أحرص على إيمان أمته وتصديقهم برسالته منه على طعامه الذى يطعم وشرابه الذى يشرب وسكنه الذى يسكن إليه . ويغدو عنه ويروح عليه ، وقد كان نبينا ﷺ من ذلك فى المقام الأعلى والمكان الأسمى ، قال الله تعالى (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) وقال (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقال (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) وفى الآيات ما يطول سرده مما يدل على أمانيه ﷺ المتعلقة بهداية قومه واخراجهم من ظلمات ما كانوا فيه الى نور ماجاء به .

وما من رسول ولا نبى الا اذا تمنى هذه الأمنية السامية ، ألقى الشيطان فى سبيله العثرات وأقام بينه وبين مقصده العقبات ووسوس فى صدور الناس وسلبهم الانتفاع بما وهبوا من قوة العقل والاحساس؛ فثاروا فى وجهه وصدوه عن قصده وعاجزوه حتى لقد يعجزونه وجادلوه بالسلاح والقوة حتى لقد يقهرونه ، فإذا ظهروا عليه والدعوة فى بدايتها وسهل عليهم ايذاؤهم وهو قليل الأتباع ، ضعيف الأنصار ؛ ظنوا الحق من جانبهم وكان فيما ألقوه من العوائق بينه وبين ما عمد إليه فتنة لهم .

غلبت سنة الله فى أن يكون الرسل من أوسط قومهم أو من المستضعفين فيهم ليكون العامل فى الاذعان بالحق محض الدليل وقوة البرهان وليكون الاختيار المطلق هو الحامل لمن يدعى إليه على قبوله ولكيلا يشارك الحق الباطل فى وسائله أو يشاركه فى نصب شراكه وحبائله .

أعداء الحق فى كل زمان هم أهل الأنفة والقوة والجاه والاعتزاز بالأموال والاولاد والعشيرة والاعوان والغرور بالزخارف والزهو بكثرة المعارف، وتلك الخصال إنما تجتمع كلها أو بعضها فى الرؤساء وذوى المكانة من الناس فتذهلهم عن أنفسهم ؛ وتصرف نظرهم عن سبيل رشدهم ، فإذا دعا الى الحق داع عرفته القلوب النقية من أوضار هذه الفواتن ؛ وفزعت إليه النفوس الصافية والعقول المستعدة لقبوله بخلوصها من هذه الشواغل ، وقلما توجد إلا عند الضعفاء وأهل المسكنة، فإذا التف هؤلاء حول الداعى وظاهروه على دعوته قام أولئك المغرورون ويقولون (ما نراك الا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين) فإذا استدرجهم الله على سنته وجعل الجدال بينهم وبين المؤمنين سجالا افتتن الذين فى قلوبهم مرض من أشياعهم ، افتتنوا بما أصابوا من الظفر فى دفاعهم . ولكن الله غالب على أمره فيمحق ما ألقاه الشيطان من هذه الشبهات ويرفع هذه الموانع وتلك العقبات ويهب السلطان لآياته فيحكمها ويثبت دعائمها وينشىء من ضعف انصارها قوة ، ويخلف لهم من ذلتهم عزة وتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الشيطان هى السفلى (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) .

المشكلة الثالثة

قال الله تعالى (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) وقد حملها بعضهم مالا تحتمل فقال إنها توحى إلى زيارة قبور أهل البيت ، وهذا محال ؛ فإن من أراد أن يفهم آية من كتاب الله فى موضوع ما ، كان لزاماً عليه أن يضم جميع الآيات الواردة فى الموضوع فيتبين له المراد فى وضوح وجلاء ، وهذا أمر لا خلاف فيه

فإذا رجعنا إلى الدستور الإلهى « المصحف » وجدنا أن الرسل صلوات الله عليهم قالوا لأقوامهم :

قال نوح فى سورة يونس آية ٧٢ (فإن توليتم فما سألتكم من أجر ، إن أجرى إلا على الله) ومثلها فى سورة هود آية ٢٨ و ١٠٩ الشعراء .

قال هود فى سورة هود آية ٥١ (يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الله الذى فطرنى) ومثلها فى آية ١٢٧ من الشعراء .

قال صالح فى سورة الشعراء آية ١٤٥ (وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين) .

وبهذا اللفظ قال لوط وشعيب فى السورة نفسها .

وقال تعالى فى سورة يس آية ٢٩ (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال : يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون) .

وفى سورة يوسف يقول الله لمحمد صلى الله عليه وسلم (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ، وما تسألهم عليه من أجر ان هو الا ذكرى للعالمين) .

ويقول الله لمحمد ﷺ فى سورة الفرقان (وما أرسلناك الا مبشراً ونذيراً ، قل ما أسألكم عليه من أجر ؛ الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا) .

وقال الله لمحمد فى سورة سبأ آية ٤٧ (قل ما سألتكم عليه من أجر فهو لكم ان أجرى الا على الله وهو على كل شىء شهيد)

وقال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم فى سورة ص آية ٨٦ (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ، ان هو الا ذكر للعالمين)

ويقول الله لمحمد ﷺ فى سورة الطور آية ٤٠ مستنكراً اعراض أولئك الذين لم يؤمنوا بدعوته (أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون)

وتكرر هذا الاستنكار والتوبيخ بهذا اللفظ فى سورة القلم آية ٤٦ — هذه الايات الكريمة تنادى فى صراحة أن الرسل الكرام وخاتمهم محمد ﷺ لم يسألوا الناس على تبليغ دعوة الله أجراً ، انما أجرهم على الله ؛ فهى فى واد ، وما زعموه من أنها تشير إلى زيارة أهل البيت فى واد آخر .

ثم انها آيات مكية نزلت قبل وجود الحسين وزينب فكيف تشير الايات الى ما لاوجود له ؟

اذاً فما معنى (قل لا أسألكم عليه أجراً الا المودة فى القربى)

المعنى أن الله تعالى يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم (وأنذر عشيرتك الأقربين) فكان النبى صلى الله عليه وسلم يدعوهم وهم يعرضون ، ويلح فى دعوتهم وهم يستكبرون ، فاجتمعوا وقالوا له : ماذا تريد من وراء دعوتك ؟ وماذا يحملك على الإلحاح بها ؟ ان كنت تريد مالا جمعنا لك من المال حتى تصير أغنانا ، وان كنت تريد الرياسة جعلناك ملكاً علينا ، وان كنت تريد ، وان كنت تريد . . . فقال لهم قولته الحكيمة المشهورة :

« والله لو وضعتم الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى ما تركت هذه الدعوة أو أموت » وأنزل الله تعالى (قل لا أسألكم عليه أجراً الا المودة فى القربى) أى لا يحملنى على الالحاح فى دعوتكم حب الرياسة أو المال ؛ وانما يحملنى عليه الوفاء لعشيرتى وأهلى وصلة الرحم التى بينى وبينكم ، فاذا آمنتم بدعوتى دامت المودة بينى وبين قرابتى .

بهذا ؛ وبهذا وحده تتفق أقوال محمد صلى الله عليه وسلم لقومه ؛ مع أقوال اخوانه لأقوامهم ، أما دعواهم : قل لا أسألكم عليه أجراً الا التردد على قبور فلان وفلان ، فذلك والله من وحى الشيطان .

المشكلة الرابعة

قتال المسلمين لغير المسلمين

قال الله تعالى (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) .

(يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) .

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) هذه الآيات تتعارض مع قوله (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون - إلى قوله لكم دينكم ولى دين) .

* * *

لم أتعب فى فصل من فصول هذا الكتاب مثل ما تعبت فى هذا الفصل . وذلك لسببين (أحدهما) أن لى أصدقاء من العلماء والمؤلفين يذهبون إلى أنه يجب على المسلمين أن يبدأوا بقتال غير المسلمين فى كل حال وفى كل وقت ، لا فرق بين مسالم ومعتد ، ويعلنون فى صراحة أن من خالفهم من المسلمين فى هذا الرأى وقال : انه لا يجب على الدولة الاسلامية أن تحارب غيرها إلا عند اعتداء أو صد عن سبيل الله ، يقول الموجبون للقتال : إن الرأى الأخير إنما هو خدعة أجنبية جازت على المخالفين لنا ، فانتفع بآثار ذلك غير المسلمين ، وكان الغرم على المسلمين[1] .

(والسبب الثانى) من أسباب ما لقيت من التعب أن لى معارف من المسيحيين ، وبينى وبينهم ما بين المواطنين من التعاون والمصالح ، وكثيراً ما جرى الحديث بيننا فى بعض المسائل الدينية ، فكانوا يفخرون علينا بأن دينهم يأمرهم ويشدد

---

(١) الشيخ عبد العزيز بن راشد النجدى فى كتابه (تيسير الوحيين) ج ٢ ص ١٣٥ .

فى الأمر بالتسامح والرفق بخلاف الاسلام الذى تكررت أوامره بقتال غير أهله وسفك دمائهم وشتان بين هذا وذاك ، وكنت أدافع عن وجهة نظر الإسلام بالتى هى أحسن .

وها أنذا أنقل للفريقين ما كتبه أعلام الإسلام وفيه الجواب عن كل شبهة وإزالة كل إشكال .

(أسباب القتال)

لم يكن رسول الله (ص) يقاتل أحداً على الدخول فى الدين ، بل كان يدعو إليه ويجاهد فى سبيله بالبراهين الساطعة ، والحجج القاطعة متبعاً فى ذلك قوله تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » ولكن قريشاً أمة معادية ؛ آذت الرسول ، وأخرجت أصحابه من ديارهم واستباحت أموالهم ، ومنعت المستضعفين من اللحاق بإخوانهم ونالت منهم ؛ فلذلك أذن الله سبحانه وتعالى لنبيه (ص) وأصحابه بقتالهم ، وقتال كل معتد وصاد عن سبيل الله ، فقال فى سورة الحج « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » ثم أمر بذلك فى سورة البقرة بقوله « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » فكان عليه السلام بعد ذلك يغزو أعداءه تارة بنفسه وتارة بإرسال البعوث والسرايا ، ونحن هنا مثبتون أشهر غزواته عليه السلام التى خرج فيها بنفسه لقتال المشركين من قريش وغيرهم .

(غزوة بدر الكبرى)

كانت فى تسع من رمضان فى السنة الثانية الهجرية ؛ ومن حديثها أن أبا سفيان ابن حرب ومعه أربعون رجلا قدم من الشام ، وكان متاجراً ومعه بها عير لقريش فلما علم بها الرسول ندب الناس إليها[1] فخرج ومعه أصحابه وكانوا ثلثمائة وأربعة عشر رجلا ؛ منهم فارسان ، الزبير والمقداد ؛ ومعهم سبعون من الإبل يتعاقبون عليها ،

---

(١) ليس فى هذا اعتداء على مال قريش ، وإنما هو استرداد لبعض ماحجروه عندهم من أموال المهاجرين .

فاتصل خبر خروجهم بأبي سفيان فاستنفر أهل مكة لعيرهم ، فنفروا سراعاً وكانت عدتهم نحو تسعمائة وخمسين مقاتلا فيهم مائة فارس ، فاستشار النبي أصحابه وقال « إن الله وعدني إحدى الطائفتين ، العير أو النفير والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم » فكان رأى ساداتهم أن يمضى إلى ما أمره الله ؛ وقالوا : لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك .

سار ﷺ إلى بدر ونزل بعدوته الدنيا ، وفى أثناء ذلك كان أبو سفيان تنكب بالعير إلى طريق الساحل ونجا بها ، ثم جد فى حمل الناس على مذهبه ، لولا أن أبا جهل جعل يستصرخ الناس ويهيج عواطفهم ، ويقول لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، ونقيم به ثلاثاً ونهابنا الأعداء .

وفى صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان سنة ٢ هـ ١٣ مارس تراءى الجيشان فقام الرسول (ص) بتعديل الصفوف ، ثم رجع وجلس هو وأبو بكر فى عريش بنى لهما ، وأتى أبو جهل بمن معه ؛ وابتدأت الحرب بالمبارزة ؛ وانتهت بنصر القلة المؤمنة وهزيمة الكثرة المشركة .

وقد رأيت أن الرسول لم يخرج لقتال ، وإنما اضطره إلى القتال صنيع أبو جهل وتشغيبه .

(غزوة أحد)

وقعت تلك الغزوة فى أوائل شوال من السنة الثالثة للهجرة ، ومن حديثها أن قريشاً لما أصابها ما أصابها فى غزوة بدر عزمت على أن تأخذ بثأرها ، فشى كثير ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم واخوانهم بها فكلموا أبا سفيان فى ذلك ثم اجتمعت قريش بأحابيشها ومن اطاعها من قبائل كنانة وتهامة ، وكان أبو سفيان قائد الناس ، والنساء يضربن بالدفوف وينحن على قتلى بدر ؛ يحرضن بذلك المشركين ، ثم ساروا حتى نزلوا على موضع مقابل المدينة .

فأين اعتداء الرسول هنا ؟

(إجلاء بنى النضير وهم يهود)

كان بين هؤلاء اليهود وبين رسول الله (ص) عهد فنقضوه وأجمعوا على اغتياله ، فأمر أصحابه عليه السلام بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم فى ربيع الأول من السنة الرابعة فتحصن اليهود منه فى الحصون ؛ فأمر بقطع النخيل والتحريق فيها ؛ فنادوه

« يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب على من يصنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها » .

ثم حاصرهم عليه السلام ست ليال فاشتد بهم الخوف ، فطلبوا أن يخرجوا من المدينة ، وأن تحقن دماءهم ، وعلى أن لهم ما حملت الابل من الأموال إلا السلاح ، فخرج بعضهم إلى خيبر وبعضهم إلى الشام ، فأين اعتداء الرسول هنا ؟

(غزوة الخندق)

كانت تلك الغزوة فى السنة الخامسة ومن حديثها أن جماعة من اليهود خرجوا إلى مكة يحزّبون الأحزاب ويحرضونهم على حرب رسول الله ﷺ ، فأجابهم أهل مكة وما لأم كثير من قبائل العرب فخرجت قريش وساروا فى عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من غطفان وكنانة وغيرهما تحت قيادة أبى سفيان .

علم بذلك المسلمون فأشار سلمان الفارسى بحفر خندق فى الجهات المكشوفة حول المدينة ، فحفر بعد أن قاسى المسلمون فى حفره متاعب شديدة ، وما زالوا به حتى أحكموه وأقاموا الحراس عليه وأقبلت الأحزاب ونزلوا بظاهرة المدينة بجانب أحد ، وخرج عليه السلام بثلاثة آلاف من المسلمين وضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم إلى آخر القصة ، فأين اعتداء الرسول هنا ؟

ويطول بنا القول لو سردنا أسباب وقعة الحديبية وخيبر وفتح مكة وحنين ، ولكننا نقول إن موقف الاسلام فيها لا يغاير موقفه فيما تقدم من المواقع ، بل إن موقفه فى الحديبية كان موضع استغراب من المسلمين ، لأن الرسول صالح المشركين على شروط مجحفة بالمسلمين ولكنه صلى الله عليه وسلم رضى بها ، فجعل الله من ورائها فتحاً مبيناً .

ومن شاء أن يقتنع ببراءة الاسلام مما رماه به خصومه — جهلا — فليراجع مصادر التاريخ والسيرة ، ومن أبى وأصر ظلماً وعدواناً فحسابه على الله .

(حجة أخرى)

ويحفظ التاريخ بين حقائقه أن رسول الله (ص) كتب إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الاسلام ، فكتب إلى هرقل عظيم الروم ، وإلى المقوقس أمير مصر ؛ وإلى النجاشى ملك الحبشة وإلى كسرى ملك الفرس ؛ وإلى غيرهم ، فمنهم من أحسن الرد وأجمل ، ومنهم من أساء وأفحش ؛ فما زاد على أن صادق المحسن منهم : وأندما على المسىء .

أما أنه جرّد حملة عسكرية لقتال من أبى أن يستجيب لله فذلك أمر لا ظل له من الحقيقة .

﴿ عقبات فى سبيل دعوة الأنبياء ﴾

فى القرآن الكريم تفصيل لحقيقة الدعوة إلى الله ، وتاريخ لسير هذه الدعوة ، وبيان لما أصاب حملتها عندما قاموا بحق الله عليهم فى إبلاغ رسالتها إلى الناس .. واستقراء أحوال الأنبياء مع أقوامهم يؤكد حقيقة واحدة ، لم تزدها الأيام إلا صدقاً ، وهو أن الاستبداد الأعمى عدو الله ، وعدو رسله ، وعدو الشعوب ، وأنه لا قيام لحق فى هذه الحياة إلا إذا طمست صور هذا الاستبداد ، وسويت به الأرض ؛ ومشت عليها الأقدام .

ولو أمكن تقليم أظافرهم لوقاية الأمم من شرهم ثم تركهم أحياء بعد ذلك يفعلون ما يشاءون ، لأشرنا بذلك !! ولكن الآيات التى سننقلها تتضافر على اتهام الاستبداد بأن الشر ذاتى فيه فلا أمان لحضارة إلا إذا خلت منه .

فى إحدى القرى الفاسدة أراد الله أن يبعث إليها من يصلح شئونها ووكل ذلك إلى نفر من المسلمين الأخيار ، فما أن بدأ عملهم الفاضل حتى منعتهم القوة الغاشمة :

(واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءهم المرسلين إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين) .

إلى هنا كشف المرسلون عن حقيقة ما كلفوا به ؛ وهو لا يعدو : « البلاغ المبين » .

ولكن جواب المستبدين منع هذا البلاغ وألا يمكن رسل الله منه :

(قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم) .

فإذا عوقب المستبدون الأولون وسيق قصصهم لمن خلفهم حتى يزدجروا ، فلا يُرهبوا هادياً ولا يؤذوا مصلحاً ؛ لم يزدهم هذا التذكير بمصارع المعتدين إلا صلفاً وعتواً .

(ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب) وليس الشك فيما جاء به المرسلون

جريمة ، فإن الشك أول مراتب اليقين . ولو أن هؤلاء لما ترددوا فى تصديق هداتهم أعملوا عقولهم فى وزن ما يعرض عليهم ؛ أو تركوهم وشأنهم يبلغون ما يعتقدون أنه الحق لهان الأمر قليلا .

لكنهم اتهموا أنبياءهم بأنهم يخرجون على التقاليد الموروثة : وأردفوا هذه التهمة بطلب السكوت عن إبلاغ الدعوة ، وإلا . .

وتريد القلة المؤمنة أن تفوز بإيمانها وحدها ، وحسبها البلاغ ! غير أنهم لا يظفرون بهذا الأمل العزيز ويبدأ البلاء بهم ، والاضطهاد لا يقتل العقائد . ومن ثم يقول أولئك المستضعفون .

(وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون)

ثم يمضى البلاء صعداً لطرد المؤمنين من ديارهم بعد ما فشل فى حملهم على الكفر بربهم .

(وقال الذين كفروا لرسلهم : لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا ؛ فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم : ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيدى ، واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد)

وعلى هذا النحو عولجت قضايا الإصلاح السماوى ، ما إن يبدأ عرضها حتى يسارع الطغاة إلى وأدها .

« كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب »

* * *

فى قصة موسى مع فرعون تلمح مطالب هذا النبى الكريم واضحة ، فهو يرجو أولا تحرير المستعبدين من قومه ، فهم عباد الله وحده وليسوا عباداً لأحد من خلقه ، وما يجوز لبشر أن يتعالى فى الارض ويستذل أهلها هكذا « أن أدوا إلىّ عباد الله إنى لكم رسول أمين ؛ وأن لا تعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين »

ثم يقول : إذا كفرتم فعليكم كفركم ؛ وإذا لم أحملكم على الايمان بالله

فلا تحملونى على الكفر به ! ! دعونى ومن معى (وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون)

فماذا يصنع فرعون بإزاء هذا المنطق الوادع المسالم ؟

يمضى على سنة الغجور الذى ورثه عن آبائه الصيد ، والذى ورثه من بعده كل مستكبر عنيد ! فيجمع حاشيته ليشير عليها بقتل هذا الرسول المرشد .

(وقال فرعون : ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد .

والمستبدون لا يعوزهم اختلاق الحجج لتبرير جرائمهم ، وليس قلب الحقائق بالأمر العسير على من يريد سفك الدم الحرام !

ومن ثم اتهم فرعون موسى بأنه مظنة تغيير الدين ونشر الفساد !

وأى فساد يحذره فرعون على الناس بعد ما أمر بقتل بنيهم واستبقاء بناتهم ؟

إن الفساد — فى منطقه السقيم — هو إيقاف البغى ! !

* * *

وهذا إبراهيم خليل الرحمن يدعو قومه إلى الله تعالى ويقيم لهم الدليل تلو الدليل على صدقه ؛ فهل تركوه يؤدى رسالته ؟ كلا

. فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أقتلوه أو حرقوه ..

وفى قصة شعيب مع مدين تفجؤك ألفاظ التهكم والسخرية

(قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد)

فإذا قال لهم (ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت)

قالوا له : يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول . وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رهطك لرجمناك) . وما لبثوا أن اطمأنوا إلى أن رهطه لن يقف عائقاً دون إزاحته وإسكات دعوته .

فطلبوا اليه أن يدخل فى شركهم وفسادهم أو يخرج من القرية !

(قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا . قال أولو كنا كارهين قد افترينا على الله كذباً ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها)

وهذا لوط أتدرى ماذا فعل كفار قومه معه ومن آمن له ؟ انه أسخف مايمكن أن يصدر من انسان (فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم ، انهم أناس يتطهرون)

وفى رسالة صالح لثمود تبدو لك هذه الحقائق نفسها، فقد طالب صالح الجمهور أن يخلع من عنقه طاعة المستبدين ، وخوفهم عقبى ركونهم اليهم

(فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون)

غير أن هذا النصح ذهب سـدى ، ولما اتهموه بالسحر وطلبوا منه معجزة تشهد له وآتاهم الله الناقة ، عدا عليها كبير ذو منعة من رؤساء القبيلة فعقرها . !

* * *

أما هود مع عاد فقد ووجه بأقبح رد ، دعاهم الى الله فقالوا :

انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين . قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين .

وماذا يجدى النصح الأمين مع قوم أغرتهم قوتهم بالتطاول ؟

وأناة المرسلين فى مقابلة شتائم المكذبين لها حكم ملحوظ ، فقليل من الناس من ينكشف لهم خطؤهم القديم على عجل . وقليل ممن تعرفوا أخطاءهم يسارع الى النزوع عنها والتزام سبيل الرشاد

والمصلحون فى علاجهم لأمراض الأمم يعطون فرصاً طويلة لشعوبهم حتى يتعلم الجاهل ويثوب الرشـاد ، فالزمن جزء من العلاج والصبر على لأواء الناس ضرورة لإنجاح الرسالات ، ولذلك لم يجزع هود عليه السلام من تسفيه قومه له . وغلظتهم معه .

وكذلك رأينا النبي محمداً صاحب الرسالة العظمى يسمع ألفاظ السخرية يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ، فلا يرى هذه الأساليب إلا حماقة صبية ويمضي في طريق دعوته لا يثنى عزيمته شيء .

ومن رحمة الله بالناس أن يطيل الأمد على هؤلاء الكافرين حتى يعذروا من أنفسهم ، فالأمم لا تعاقب بعد كفر ساعة أو كفر شهر ، وإنما بعد أن يتبين أن بقاءهم سبة للحياة وفساد للأحياء !

وقد أمر الله رسوله أن يتحمل تبعات ذلك مهما تتابعت السنون .

وما خلقنا السموات والارض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية ؛ فاصفح الصفح الجميل إن ربك هو الخلاق العليم

وكذلك أمر أصحاب الرسول ممن يحملون معه أعباء الدعوة ويكافحون لنصرها (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون)

. . .

في أيام كالحة من وطأة الاستبداد بالناس أرسل الله عيسى بن مريم رسولا رقيق القلب نبيل العاطفة ، وكانت السمة البارزة في رسالته مواساة الضعفاء ، ورد اعتبار المضطهدين والفقراء ، والرفق بالعصاة حتى يهتدوا ، وبالقساة حتى يلينوا ، وكانت اليهودية قد فسدت بين أيدى أتباعها ، بل كان أحبارها لا يقلون قسوة قلوب عن حكام الرومان الأشداء

فلما جاء عيسى صلوات الله عليه ترك رجال الدين ورجال الدنيا جميعاً ولزم الحياة مع الضعفاء والمرضى والأرامل والبائسين وبدأ جانب الطبقات الفقيرة ينتعش وأحس حراس المظالم بالنيام يستيقظون وبالمشردين يتجمعون ، وأن الأرض توشك أن تميد تحت أقدامهم ، فقرروا قتل عيسى وتشريد تلامذته ومصادرة تعاليمه ! ووكل المستبدون العميان تنفيذ خطتهم إلى فرقة من الجند . ولكن عيسى نجا ؛ وفر أكثر تلامذته الى أقطار نائية .

بيد أن ذلك لم يوقف الحرب الفاجرة على الديانة الجديدة ؛ فقد تتبع الرومان

كل مايدل عليها بالاحراق؛ وكل من ينتمى اليها بالقتل أو النفى ، ولم يلم المسيحيون شعثهم الا بعد قرن من اختفاء عيسى

ومهما اختلفت مشارب الناس وكشفت عن معادنهم تجارب الحياة فإن الدعامة الأولى للتدين حرية العقل والارادة ؛ والمنهج الأول للنبيين تربية الأمم بالاقناع والمحبة واثارة مشاعر الاعجاب والاقدام فى نفوسهم

وقد فعل ذلك صاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله

ماذا كان يملك من القوة حتى يكره الناس على الايمان ؟

لقد جمع الناس على الله وسط عواصف عاتية من الغضب والمطاردة والعدوان وأشعل مصابيح الفكر بعدما أطفأها التقليد وأخمدها الركود . وساق الدلائل البينة على صدق دينه ؛ فاحتشدت من حوله الألباب النيرة والقلوب الموقنة ، وظل حياته يكافح فتن القبائل المغيرة ؛ ويكلف صحبه أن يغرموا من أنفسهم وأموالهم للذود عن دينهم فكانوا يسارعون الى ذلك فى سرور وترحيب ، وجاءت أيام كان النطق فيها بكلمة التوحيد إشارة للهجوم واستباحة الحقوق

ومع ذلك قالها من انشرحت بها صدورهم وطابت بالبذل فى سبيلها أنفسهم . .

وبين الفينة والأخرى من مراحل العسف يجىء المشركون الى الرسول وصحبه يحسبون أن التعذيب نال من يقينهم وأن ظلام المستقبل سيرجعهم الى جاهليتهم ، فإذا بهم يسعون الى اجابة القرآن (قل: انى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ؛ قل : لا أتبع أهواءكم ؛ قد ضللت اذاً وما أنا من المهتدين . قل : انى على بينة من ربى وكذبتم به . . ما عندى ما تستعجلون به ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين)

كان المشركون يتوقعون أن يكبح الرسول عدوانهم بقوة تأتيه من السماء ! فهم لفرط تكذيبهم يستعجلونها . وفى استعجالها لون من السخرية والتحدى يكيدون به المستضعفين من المؤمنين . غير أن الرسول وصحبه مكلفون بالصبر على هذا الكيد وان حز فيهم (قل : لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين)

فهل هذا المجتمع الذى تربى فيه المؤمنون الأولون يحمل أثارة من اكراه على دين ؟

القتال ليس من خصائص الاسلام (١)

ليس محمد ﷺ أول نبي حارب ولا آخر مصلح اضطر أن يحمل السلاح .

وقد رأيت من استعراض الرسالات الأولى أن أكثرها ذهب ضحية الكيد الخبيث والمكر السيء . ومادامت طبيعة الحياة لا تخلو من مبغضين للحق ومعوقين لسيره ، فإنه لا يستغرب من أصحاب الحق أن يضعوا تجارب الماضي الطويل نصب أعينهم ، وأن يتأهبوا للكفاح ضد أعدائه .

وليس العيب أن تكون مدججاً بالسلاح ، وإنما العيب أن تسطو بسلاحك على الوادعين : أو تروع به الآمنين !

ان البشر لما كانوا بضعة أخوة ، وقف أحدهما فى طريق الآخر مبارزاً بالعداوة مستحلا للدم (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الاخر ، قال لأقتلنك قال : إنما يتقبل الله من المتقين » . وما لبث هذا التهديد أن استحال إلى جريمة نكراء : فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله

فإذا نسل الأخ القاتل ألوفاً من السفاحين المتعطشين إلى الجريمة فهل ينتظر العباد الذين تقبل الله قربانهم ، وزكى أفئدتهم أن يقادوا إلى المجازر قود الخراف الطيعة ، لا يدفعون بأساً ؛ ولا يردون عدوا .

هذه هى الحماقة ، والاستمساك بالسلم فى هذه الحال خطوة إلى الفناء ؛ ورضا بالذبح ذلك منطق الواقع ! وقد تمشى معه فرض القتال على المسلمين ! ومن قبلهم على النصارى وعلى اليهود ، فليس القتال فريضة انفرد الاسلام بتقريرها بل سبقت الأديان الأخرى إليها ، ونهضت بتبعاتها ، والاية التى شرعت القتال فى الاسلام تشير إلى هذا .

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله » .

هذا الجزء من الاية ناطق بأن المؤمنين هم الذين قوتلوا . وأن هذا الهجوم الواقع بهم لا علة له إلا أنهم مؤمنون .

---

(١) للاستاذ المجاهد الشيخ محمد الغزالى مدير المساجد .

فهل يسكتون على الضيم ؟ إن نهاية هذا السكوت تدميرهم وتدمير رسالاتهم معهم لا بد من دفاع يحفظ به أتباع موسى وعيسى ومحمد جميعا معابدهم التى يؤدون فيها حق الله عليهم .

ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ،

إنها حرب حقا ، أذن الله بها سياجا للهدى وصيانة لمعالمه ، لم تشعلها مآرب النفوس ولكن فرضتها دواعى الغضب لله .

فأى مطمع قد يتصيد لهذا القتال ؟

وليست الحكاية فيه عن المسلمين فحسب ، وإنما عن كنائس النصارى وبيع اليهود وصوامع العباد من كل لون .

رد العدوان

دعامة الجهاد فى الاسلام دفع البغى وكسر شرّة المعتدين .

(وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) .

فلا يجوز لمسلم أن يعتدى لأنه يتعرض لسخط الله ؛ وإذا اقتص لعدوان وقع عليه فليرد اللطمة بمثلها لا يتزيد .

(فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) .

هذه تعاليم من ناحية مظهرها ـ تحمل طابع الدقة ، ومن ـ ناحية جوهرها ـ تنضبط بقيود مشددة من تقوى الله ؛ الذى حورب المؤمنون من أجله سابقاً ؛ ويحاربون باسمه لاحقاً ، ولا نعرف عفافا فى ردع الطغاة وحماية الذمار والامساك بزمام القوة حتى لا تطغى كهذا العفاف الذى أمر المسلمون به .

وهناك نصوص أخرى سنسردها ونشرحها ، لأن النظر القاصر أو العابث قد يراها مخالفة لهذا المبدأ الأصيل .

وقبل أن نفعل ذلك نريد أن نذكر بحقيقة لا معدى عن توكيدها وإن كانت بدهية . هى أن قطع النص عن السياق الذى جاء فيه والملابسات التى تكتنفه يؤدى بنا إلى إفساد النص ومسخ معناه أى إلى تحريف الكلم عن مواضعه . ولعل من ذلك قول الشاعر المهذار :

ما قال ربك ويل للاولى سكروا بل قال ربك : ويل للمصلينا !

* * *

ومن الناس من يستدل على ميل الاسلام إلى العدوان وإيقاعه الفتن وتحريشه بين البشر بحجج لا تخرج فى نسقها عن طريقة هذا الشاعر المخمور .

مثال ذلك أن يجىء أحدهم الى آية من عرض السورة فيبترها عما قبلها وما بعدها مثل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم . ان الله لا يهدى القوم الظالمين) فيفهم من الاية أن الاسلام ينهى نهياً جازماً عن مصادقة اليهود والنصارى ويوجب قطع علائقهم ويهدد المسلم الذى يصادقهم بأنه انفصل عن الاسلام والتحق باليهودية والنصرانية ! وهذا كما ترى ، ما تشير اليه الاية مجردة .

والمعنى بهذا التعميم باطل ! والايات اللاحقة بهذه الاية المرتبطة بها فى موضوعها تحدد الموضوع بجلاء لا يحتمل خلطاً ، فالحق أن الايات نزلت تطهيراً للمجتمع الاسلامى من ألاعيب المنافقين ومن مؤامراتهم التى تدبر فى الخفاء لمساعدة فريق معين من أهل الكتاب أعلنوا على المسلمين حربا شعواء واشتبكوا مع الدين الجديد فى قتال هو — بالنسبة له — قتال حياة أو موت .

فاليهود والنصارى فى هذه الاية قوم يحاربون المسلمين فعلا ، وقد وصلوا فى حربهم الى منزلة من القوة جعلت ضعاف الايمان يفكرون فى التحبب اليهم والتجمل معهم ؛ فنزلت الآية المذكورة ونزل عقيبها وفى نفسها ما يفضح نوايا المتخاذلين فى الدفاع عن الدين الذى انتسبوا اليه (فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون : نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسرّوا فى أنفسهم نادمين) ثم تستطرد الايات فى

تعليق المؤمنين بدينهم وتوصيتهم بتدعيم صفوفهم وتذهب عنهم وحشة الغربة بعقائدهم وسط المتربصين والمتهجمين .

ثم تعود مرة أخرى لتؤكد مقاطعة المحاربين للاسلام من أهل الكتاب مسوغة هذه المقاطعة بأنها رد للعدوان (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين : وإذا ناديتم إلى الصـــلاة اتخذوها هزوا ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) .

فهل ثم ضير على دين ما إذا منع أتباعه من مصادقة السفهاء الذين يتهكمون بتعاليمه ويسخرون من شعائره ؟

وهل يعتبر هذا تحديا أم بعداً عن أسباب الخصومة والتحدى ؟

. . .

ومن هذا القبيل قوله تعالى :

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ، تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق .

فالاية مقولة ، والخصومة بين المشركين فى مكة والمسلمين فى المدينة على أشدها والحرب الدائرة بين الفريقين لما تستقر على نتيجة حاسمة ؛ وقد أعلن المشركون هذه الحرب لأول مجاهرة بالدعوة ، ثم زادوها حدة بطرد المسلمين من ديارهم وأموالهم ، ولذلك مضت الآية تقول :

(يخرجون الرسول وإياكم ، أن تؤمنوا بالله ربكم)

والمودة التى نزلت الاية باستنكارها ، يستنكرها كل نظام حربى فى الدنيا . وهى — كما روى — معلومات عسكرية أسر بها حاطب فى حالة ضعف نفسى إلى قادة الشرك بمكة ولولا يقظة المسلمين والرقابة التى فرضوها على الطريق لوصلت هذه المعلومات الى خصوم الاسلام فأضروا بمستقبله أبلغ الضرر — ان ولاية الكفار — والحالة هذه خيانة عظمى .

وقد هم عمر بقتل صاحبها . لولا أن للرجـــل ماضياً كريما جعل الرسول يعفو عنه !

وفى التعقيب على هذه الحادثة ما يدل على اتجاه الاسلام الحار إلى المسالمة والصفح ، فقد جاء فى شأنها قول الله عز وجل :

عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم . أنظر كيف يترقب عهود الأمن والطمأنينة بشوق ورغبة ؟

أجل إنه يترقبها ويكشف فى صراحة أن سيادة المودة والصفاء بين الناس أصل فى تقرير العلائق بينهم ، وأن طوارىء الخصومة ومظاهر الجفوة يجرها الآخرون بتعذيبهم واستهتارهم ، وأن الاسلام وأهله أبرياء من إثارتها ، ولذلك يمضى النظم الإلهى الكريم فى التعليل لمنع الموالاة فيقول :

لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ؛ إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ؛ ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون .

أما إذا اختفى العدوان وامتنع التحدى فالصداقة والتواصل والمودة والتراحم عواطف لا حرج عليها بين المسلمين وأهل الكتاب أجمعين .

وحسبك أن الله أهدر اختلاف الدين فى اختيار الزوجة ويسّر للمسلمين واليهود والنصارى أن تجمعهم مائدة واحدة وفراش واحد

وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذين أخدان .

والدين الذى يسمح باختلاف الدين فى بيت صغير تتلاقى فيه الوجوه وتتقارب الأبدان وتشتبك المشاعر . لا يضيق ألبتة باختلاف الدين فى وطن كبير تتسع فيه المصالح ، وتتعدد الحاجات والكفايات ؛ ويستحب فيه التعاون على بلوغ الغايات .

إن الاسلام لا يبسط يده بالأذى إلى أى من خلق الله ! وقد بعث نبيه رحمة للعالمين ، وبركة للناس أجمعين

بيد أن الاسلام - وإن آثر السلام يبغض النية المدخولة ، ويحذر الصدور المنطوية على الضغينة وينبه أعداءه إلى أنه لا يجور ولا يضام .

وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم . .

معاملة خاصة

غير أن مشركى الجزيرة العربية لم يمنحوا هذا القسط الكامل من الحرية العقلية التى تبيح لهم البقاء على عبادة الأحجار إذا شاءوا أو الدخول فى الاسلام إذا عقلوا! وفيهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم - إلا بحق الاسلام - وحسابهم على الله .

والمراد بالناس (١) فى الحديث عبدة الأوثان من العرب خاصة — وقد أجمع على ذلك العلماء — فلم هذه المعاملة ؟ أو ليست إكراهاً على الدين ؟ ولماذا عدل الاسلام عن خطته الأصلية فى عرض دعوته ؟ ألأن أولئك الجهال قد أسقطوا كرامة عقولهم بعبادتهم أحجاراً صماً لا تسمع ولا ترى ؛ فحسنت زحزحتهم عنها بالقوة — وفى ذلك مصلحتهم كما لا يشك عاقل ؟

لا ، فلو كان الأمر كذلك لعامل الاسلام عباد العجول والأشجار والأصنام بهذا الأسلوب فى كل بلد نزل به . ولكننا نلاحظ أنه عامل المجوس معاملة أوسع وأرق ؛ وأعطاهم حق الاختيار بين دينهم والاسلام

أخرج مالك عن جعفر بن محمد أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال : ما أدرى ما أصنع فى أمرهم ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف : أشهد لسمعته

---

(١) من استعمال العام فى الخاص كقوله تعالى : الذين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم ؛ فالناس الأولى بعض المنافقين ، والأخيرة مشركو مكة .

من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سنوا بهم سنة أهل الكتاب

وأخرج عن ابن شهاب قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية عن مجوس البحرين ، وأن عمر أخذها من مجوس فارس وأن عثمان أخذها من البربر .

الحق ان الاسلام أعطى مشركى الجزيرة حق البقاء على الوثنية ما طابت بها نفوسهم ، على أن يتركوا الحرية لمن هجرها الى الايمان بالله وحده فلا يفتنوه أو يضطهدوه . وظهر ذلك أول الاسلام من قوله تعالى :

(قل يا أيها الكافرون : لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ؛ ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين)

بيد أن هؤلاء المشركين الحمق ركبوا رءوسهم وسيطرت عليهم فكرة القضاء على الدين الجديد واستئصال شأفته والمغامرة بكل شىء فى سبيل محوه ومحق أتباعه فإما طاحوا به واما طاح بهم ، وشاء القدر الأخير ، فإن الرسول وصحابته ظلوا عشرين عاماً يسمحون للمشركين بالبقاء على دينهم ؛ راجين منهم أن يتركوهم وشأنهم ثم اتضحت نوايا المشركين الخبيثة

(ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون)

(ان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون)

* * *

فإذا انتفى العدوان وأمنت الفتنة فلا مكان لقتال وحمل السيف عندئذ جريمة ؛ وقد وضح القرآن الكريم ذلك :

(فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا)

وأكد الدوافع التى تضطره الى خوض المعمعة وتحمله على شهر السلاح .

فإن لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث

فقفتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً .

وطريق الدعوة العتيد فى غرس الايمان وتدعيم الحق هو البيان لا السنان والإرشاد المجرد لا الإكراه المقيت

قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ماحملتم وإن تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين

. . .

وهناك مسألة تحتاج إلى فقه وتمحيص ، وهى علاقة الاسلام بأهل الكتب الأولى من يهود ونصارى ، أليست تخضع خضوعا تاماً للمبادىء التى شرحناها ودعمناها بأدلتها ؟ ونحن نجيب ، بلى إنها تخضع لها خضوعا تاماً ، وإذا لم تسر هذه المبادىء على اليهود والنصارى فعلى من تسرى إذن ؟

وهنا يرد سؤال آخر ، فما معنى قتالهم حتى يدفعوا الجزية ؟ وذلك ما تشير إليه الآية :

(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)

والجواب أن الآية المذكورة — فى ضوء النصوص السابقة — لا تنطبق إلا على المعتدين الفتانين من اليهود والنصارى ، الذين نزل فيهم قول الله من قبل :

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء

وقد أبنا من هم المعنيون بهذه التوجيهات

يقول الشيخ محمود شلتوت شارحا هذه الاية : إنها تأمر باستمرار مقاتلة طائفة هذه صفتها ، لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر . . الخ . قد ارتكبت من قبل مع المسلمين ما كان سبباً للقتال ، من نقض عهد ، أو انقضاض على الدعوة ووضع للعراقيل فى سبيلها ، فهى لا تجعل عدم الايمان وما بعده سبباً للقتال ، ولكنها تذكر هذه الصفات التى صارت اليهم تبييناً للواقع وإغراء بهم بعدما تحقق العدوان

منهم ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، يحلون لهم بالهوى ويحرمون غير مؤمنين بتحليل الله ولا تحريمه ، وليس عندهم ما يردعهم عن نقض عهد ومصادرة حق ولا رجوع عن عدوان وبغى

هؤلاء هم الذين تأمر الاية باستمرار قتالهم حتى نأمن شرهم ، ونثق بخضوعهم وانخلاعهم من الفتنة التى يتقلبون فيها ، وجعل القرآن على هذا الخضوع علامة ، وهى دفعهم الجزية التى ستنفق فى المصالح العامة للمسلمين وغير المسلمين .

فليست الجزية كما يتصورها بعض الناس بدلا عن إسلامهم أو دمائهم ، وإنما هى علامة كفهم عن القتال ومصادرة الدعوة

ثم هى مقابل لحماية أنفسهم وأموالهم

ذكر أبو يوسف فى كتاب الخراج أن أبا عبيدة بعدما صالح أهل الشام وجبى منهم الجزية والخراج بلغه أن الروم قد جمعوا له ، واشتد الأمر عليه وعلى المسلمين فكتب إلى أمراء المدن التى تم صلحها أن يردوا عليهم ما جبى منهم من الجزية والخراج وأن يقولوا لهم : إنما رددنا لكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وانكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم ، وإنا لا نقدر على ذلك ؛ وقد رددنا لكم ما أخذنا منكم ! ونحن لكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا ان نصرنا الله عليهم !

هذا هو المعنى الذى تفهم عليه الاية ويساعد عليه سياقها ؛ وتتفق به مع غيرها ولو كان القصد منها أنهم يقاتلون لكفرهم ، وأن الكفر هو السبب الوحيد لقتالهم لجعلت غاية القتال اسلامهم ؛ ولما قبلت منهم الجزية وأقروا على دينهم .

المشكلة الخامسة[1]

قصة داوود

« وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ؟ إذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط : إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب : قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب : فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب : يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »

هذه هى آيات القصة كما جاءت فى سورة « ص » فإذا صرفنا النظر عن كل ما قاله النصارى فى كتبهم وراج عند جهلة المسلمين خرجنا بهذه الحقيقة .

كان داود عليه السلام خليفة الله فى الأرض ، يبلغ الناس شرائعه ، وينفذ فيهم أحكامه ، ويقضى فيما ينشأ بينهم من الخصومات والمنازعات بدافع البغى والظلم الغريزى فى طباع البشر ، يدل على ذلك قوله تعالى (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق) الخ .

ومعلوم أنه كان من أنبياء بنى إسرائيل ، وأنه نشأ فى هؤلاء القوم الذين مردوا على البغى والظلم ؛ وتجاوزوا فيهما كل حدود الإسراف ، حتى قتلوا كثيراً من أنبيائهم ظلما وعدوانا ؛ وأحبوا المال حبا جما ملك عليهم شعورهم ووجدانهم حتى أكلوا السحت والربا ؛ وأموال الناس بالباطل ، كما قال تعالى (سماعون للكذب أكالون للسحت) وقال (وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل) واستحلوا فى كسبه كل وسيلة حتى بيع البنات ، فكان بغيهم الذى تأصل فى أعماق

---

(١) للأستاذ المرحوم الشيخ حسين سامى

نفوسهم ، وحبهم لكسب المال من أى طريق يدفعهم إلى التنازع واعتداء القوى منهم على الضعيف إدلالا عليه بسلطة الجاه والغنى ، وكان تنازعهم وتجاحدهم فى الحقوق وبغى بعضهم على بعض لا تهدأ عواصفه ، ولا تخبو ناره ، فكان من الضرورى أن يكون خليفة الله فيهم وهو داود عليه السلام ، ظاهراً لهم فى مجلس الحكم فى كل آن للقضاء فيما يرفع إليه من الدعاوى والخصومات كما هو مقتضى الخلافة لتنتظم العلاقات فيما بينهم وتقطع مادة النزاع ، ولكنه عليه السلام كان ينزع به الحنين إلى عبادة الله تعالى فى بعض الأحيان فيخلو فى محرابه وينقطع عن هذا العالم المادى ، ليتوجه بعقله وروحه وشعوره ووجدانه وجوارحه إلى ربه ، وليشبع روحه القدسية من أنوار المعارف الربانية .

وكان محرابه غرفة ذات أسوار ، فاتفق فى أثناء خلوته للعبادة أن تنازع اثنان من بنى إسرائيل فى نعاج وأرادا عرض قضيتهما عليه ، ولم يكن إذ ذاك فى مجلس الحكم لاعتزاله فى خلوته ، فتوجها إلى محرابه وكان بابه مغلقا فتسوّراه ودخلا عليه ومن معهما من أشياعهما بتلك الطريقة المنكرة ، ففزع منهم لأنه ظن فى مبدىء الأمر أنهم يريدون به شراً ، وهو يعلم من طبيعة هذا الشعب ضراوتهم بسفك دماء الأنبياء ، وليس معه موثق من الله أن يعصمه من القتل ، فلما رأوا امارات الفزع بادية عليه أعلموه أنهم لا يريدون به شراً ، وإنما أتوا لعرض خصومة اثنين منهم عليه ، وبسطوا أمرهم إليه ، فقضى بينهم بما هو مذكور فى الآيات .

وعلم داود عليه السلام بعد انتهائه من القضاء أن الله تعالى اختبره بدخولهم عليه على هذا النحو لينبهه إلى أن التفرغ لقضاء مصالح الأمة أولى من الخلوة فى المحراب للعبادة ، وأن مقتضى وظيفة الخلافة التى شرفه الله بها أن يكون بارزاً للناس فى كل وقت للفصل فى خصوماتهم ، وأنه بخلوته فى محرابه قد ترك ما هو الأولى به بمقتضى وظيفته ، ولشدة خشيته من الله عد تركه الأولى كالذنب (فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب) .

أما الخصمان فيتبين من صريح الآيات أنهما رجلان من بنى إسرائيل كانا شريكين فى قطيع من النعاج ، وكان لأحدهما نعجة واحدة ، وللآخر تسع وتسعون

نعجة ، فبغى ذلك الشريك الغنى المدل بثروته على شريكه الفقير الضعيف بفقره ، كما هو شأن الأغنياء مع الفقراء فى كل عصر ، وأراد أن يتملك منه نعجته قسراً وأن يتنازل له شريكه الفقير عن ملكها ، وغلبه فى الحوار عند النزاع ، فتخاصما ؛ وانتصر لكل منهما قبيله ، وذهبوا جميعا إلى داود عليه السلام ليقضى بينهم وكان فى محرابه ، فتفجأها عليه سوره وكان من شأنهم معه ما قصه علينا القرآن الكريم .

ذلك ما فهمناه من القصة ، ومن سابق الكلام ولاحقه وصريحه وإيمائه ، وهو بعيد كل البعد عن الاخلال بعصمته عليه السلام ، وعن كل ما نسبه إليه المفترون زوراً وبهتانا من التهم الباطلة .

. . .

أما ما روى فى كتب التفسير من تلك القصة الطويلة فهى من الاسرائيليات ، وهى تتلخص فى أن داود عليه السلام كان قد قسم الدهر ثلاثة أيام : يوماً يقضى فيه بين الناس ، ويوما يخلو فيه لعبادة ربه ؛ ويوماً لنسائه وأشغاله — إلى أن قالت القصة — وبينما داود فى خلوته للعبادة رأى امرأة جميلة جداً ، فانشغل قلبه بها فسأل عنها فقيل له إنها زوجة فلان ؛ وإن زوجها خرج غازياً فى سبيل الله تحت قيادة رجل من آل داود ؛ فأرسل داود إلى قريبه هذا وأمره أن يقدم هذا الزوج إلى مواطن الخطر فى الحرب ففعل ، وكان نصيبه القتل ، فلما انقضت عدة الزوجة تزوجها داود . إلى آخرها .

وهذه القصـــة مروية من طريق السدى والكلبي ومقاتل ابن سليمان ، وكلهم مردود الرواية ليس فيهم ثقة ، وهذا الحكم يظهر لك بمراجعة كتب الجرح والتعديل .

وأما ما اشتملت عليه القصة من الأباطيل فيتلخص فيما يأتى :

١) أنهم نسبوا إلى داود عليه الســـلام التهجم بالاطلاع على عورة امرأة أجنبية عنه .

٢) انتهاك حرمة الجوار .

٣) الغدر بزوج المرأة وتدبير المكيدة لقتله ليستولى على امرأته .

٤) الخضوع لشهوته الطبيعية حيث لم يكتف بتسع وتسعين امرأة من نسائه واتخذ الاجرام وسيلة إلى ضم زوجة جاره إلى نسائه .

وكل هذه أمور يستحيل صدورها من نبي معصوم لأنها منافية للعصمة التى قامت الأدلة القطعية على ثبوتها للأنبياء والرسل عليهم السلام ، وصارت من معتقدات الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة ؛ وإذا جاز صدور هذه الجرائم من نبي — على زعم المحرفين من عشاق الأساطير — فاذا بقي للمحرمين والفساق وعبدة الاهواء والشهوات (سبحانك هذا بهتان عظيم) .

وإن من أكبر دواعى العجب أن يصدق بعض الناس هذه المفتريات ويزعموا انها المرادة من آيات القصة ، ويحاولوا تأويل الآيات تأويلا بارداً لتوافق هذه الأساطير ، فيزعمون أن المراد بالنعاج فى الآية النساء ، وأن القرآن عبر عن المرأة بالنعجة على سبيل المجاز لتكون رمزاً إلى ما وقع فيه داود عليه السلام من الخطيئة بالعذر بزوج المرأة وضمها إلى نسائه ، وهى مزاعم باطلة .

(الأدلة على بطلانها)

١) إن قصة داود عليه السلام فى سورة « ص » قد سيقت مساق المدح له بدليل أن الله تعالى ذكرها للنبي صلى الله عليه وسلم ليقتدى بداود فى الصبر ، ومحال أن يأمر الله سيد الرسل بالاقتداء بداود إلا وهو على أتم ما يكون من الكمال ، وقد مدحه الله فى أولها وآخرها بكثير من المدح الجليلة ، فلو صحت هذه الأسطورة لكانت مناقضة لسياق الآيات مناقضة صريحة .

٢) قامت الأدلة القطعية على أن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام معصومون من المعاصى والذنوب ، كبيرها وصغيرها ، ولو صحت هذه الأسطورة التى نسبت إلى داود عليه السلام ارتكاب الجريمة لكانت هادمة لعصمته ولارتفع الوثوق برسالته وذلك باطل .

وقد نص المحدثون على أن كل خبر ناقض أصلا قطعياً من أصول الدين فهو موضوع قطعاً ولا تجوز روايته ، وبما أن هذه الأسطورة مناقضة للعصمة التى هى من أصول الدين القطعية فهى باطلة بلا مراء .

٣) إن الله تعالى أثنى على داود عليه السلام ووصفه بصفات تدلنا على استحالة صدور هذه الخطايا منه ، وقد علمت فيما سبق أنه وصفه بعبوديته ، والقدرة على طاعته والاحتراز عن معصـــيته والأوبة إليه فى جميع أوقاته وأحواله لدوام تذكره لعظمته فى قوله (واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) ومن جمع بين هذه الصفات فمحال أن تستولى عليه الغفلة فتدفعه إلى ارتكاب الخطيئة .

٤) إن الله تعالى وصف داود عليه السلام بأنه آتاه الحكمة وفصل الخطاب ، والحكمة هى العلم المتحكم فى الارادة الضابط لكل قوى النفس ، فلا تصدر فى أى عمل إلا على مقتضاها ، فكيف يعقل أن تلك النفس المضبوطة فى كل أعمالها بضوابط الحكمة تسف إلى ارتكاب هذه الخطايا التى يتنزه عن مثلها آحاد المؤمنين ، فضلا عن نبى ورسول من خيار المرسلين .

٥) إن الله تعالى قد استخلف داود عليه السلام فى الأرض وجعله قدوة لأمته ، فكيف يتصور من عنده ذرة من العقل أن يستخلف الله رجلا يخضع لشهوته ، ويرتكب الجريمة فى سبيلها ، وكيف يعقل أن يجعله الله قدوة لأمته وهو غير قادر على ضبط نفسه وشهواته ؟

فإن قالوا : ولماذا استغفر ربه إذاً ؟ قلنا لهم ، ليس ضرورياً أن يكون الاستغفار بسبب المعصية ، فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة ، وليس استغفاره لمعصية ، وإنما هو زيادة تقرب إلى الله تعالى وترق فى مراتب الكمال . وكذلك استغفار داود عليه السلام ، على أنه يجوز أن يكون المعنى أنه استغفر ربه من ترك ما هو الأولى بمقام خلافته ، وعليه فلا يكون الاستغفار دليلا على صدور معصية منه .

على أن آيات القرآن ليس فيها إشارة ولا رمز إلى كون النعاج مجازاً عن النساء ، ولولا هذه الأساطير لما خطر ذلك ببال أحد يقرأ الآيات .

وأما ما زعمه بعض المفسرين من أن النعاج فى الاية مجاز عن النساء فزعم باطل لا يؤيده دليل ، لأن المجاز لابد له من قرينة تصرف الذهن عن المعنى الحقيقى للفظ

إلى المعنى المجازى ، فأية قرينة هنا تصرف الذهن عن المعنى الحقيقى للفظ النعجة وهو أنثى الضأن إلى المعنى المجازى وهو المرأة ؟

إن الايات ليس فيها إشارة ولا تلميح ولا إيماء إلى أية قرينه تدل على أن لفظ النعاج محمول على معناه المجازى ؛ وليس لمن ذهبوا إلى ادعاء التجوز فى لفظ النعجة قرينة إلا تلك الأساطير الباطلة التى نقضناها آنفاً ، وهى لا تصلح أن تكون قرينة تصحح احتمال التجوز فى لفظ النعاج ، وإذاً يتعين أن يكون اللفظ محمولا على حقيقته . ويكون التنازع الذى حصل بين الخصمين تنازعا فى نعاج حقيقة لا فى نساء معبر عنهن بالنعاج كما زعمه المحرفون من عشاق الأساطير الباطلة .

• • •

إن طريقة صرف الكلام من الحقيقة إلى المجاز بغير قرينة من الطرق التى لا يعرفها الإسلام ، ومن حق الكلام أن يصرف إلى الحقيقة دائماً حتى يمكن التفاهم بين الناس ويتم التعاون بينهم فى أمور الدين والدنيا

وقد أدى صرف اللفظ عن ظاهره إلى المجاز ، الى إنكار كثير من صفات الله تعالى كالاستواء والعلو والفوقية ؛ وغير ذلك ؛ وكان من ذلك مذاهب التأويل التى لم يكن يعرفها السلف الصالح .

وقد تولى الامام ابن القيم رحمه الله بيان فساد القول بالمجاز فى القرآن الكريم والحديث الشريف بيانا شافيا يصل الى مائتى صفحة من كتابه القيم (الصواعق المرسلة) .

وقد طبعناه حديثا وثمنه ٦٠ قرشا ويطلب من مطبعة الإمام ١٣ شارع قرقول المنشية بالقلعة بمصر .

المشكلة السادسة

قال الله تعالى فى سورة المائدة (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) وهى فى ظاهرها تخالف وتتعارض مع قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضة على كل قادر عالم بما يأمر وينهى والنصوص فى ذلك أكثر من أن تحصى فى كتاب الله وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وهى مشهورة ولو كان الأمر على خلاف ذلك لفسد الكون ولا أرسلت الرسل ولا أنزلت الكتب .

أما معنى (عليكم أنفسكم) أى اذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر فلم يُسمع لكم ولم ينتفع بتذكيركم ، فحينئذ عليكم أنفسكم فأصلحوها وزكوها بما جاءكم به رسولكم : لا يضركم من ضل اذا اهتديتم ؛ اذ لا تزر وازرة وزر أخرى ومن أصول الاهتداء : الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإذاً لا تكونون مهتدين الا اذا بلغتم دعوة الحق والخير ؛ وعلمتم الجاهلين ما أعطاكم الله من العلم والدين ، وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر .

قال الحافظ بن كثير فى تفسيره : قال الامام أحمد رحمه الله بسنده الى قيس قال : قام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس انكم تقرءون هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) الخ وانكم تضعونها على غير موضعها وانى سمعت رسول الله ﷺ يقول (ان الناس اذا رأوا المنكر ولم يغيروه يوشك أن الله عز وجل أن يعمهم بعقابه) .

المشكلة السابعة

هل أشرك آدم وحواء

قال الله تعالى (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فمرت به ، فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين (١٩٠) فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما . فتعالى الله عما يشركون)

الاشكال فى هاتين الآيتين جاء مما روى عن بعض الصحابة والتابعين ، وفى حديث مرفوع أيضا — من أن الاية فى آدم وحواء ، وبديهى أن هذه الروايات لا يصح أن تؤخذ قضية مسلمة أو حجة قطعيه فى فهم كتاب الله تعالى ، لأن تلك الروايات ترمى آدم وحواء بالشرك ؛ وهو ما لا يقبله عقل سليم .

وكثير من المفسرين أطالوا القول هنا بما لا يصح لنا ذكره وانما الذى يصح أن يذكر ويبين بطلانه فهو الروايات التى انخدع بها ولا يزال ينخدع بها الكثيرون وعمدتنا فى تمحيصها وبيان عللها الحافظ بن كثير فقد قال فى تفسيره ما نصه :

« ذكر المفسرون ههنا آثاراً وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها ؛ ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح فى ذلك ان شاء الله وبه الثقة .

قال الامام أحمد فى مسنده : حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن ابراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لما ولدت حواء طاف بها ابليس ، وكان لا يعيش لها ولد ، فقال : سمّيه عبد الحارث فعاش ، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره » .

والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه (أحدها) أن عمر بن ابراهيم هذا هو البصرى وقد وثقه ابن معين ؛ ولكن قال أبو حاتم الرازى لا يحتج به [1] .

---

(١) وقال أحمد وابن عدى وابن حبان : انه يروى عن قتادة أحاديث منكره لا يوافق عليها ، وقال الدارقطنى : ويترك حديثه ، وقال البزار ليس بالحافظ .

(الثانى) إنه قد روى من قول سمرة نفسه ليس مرفوعا كما قال ابن جرير (الثالث) أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا ، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه . قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن (جعلا له شركاء فيما آتاهما) قال كان هذا فى بعض أهل الملل ولم يكن بآدم ، وحدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال قال الحسن عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعد ، يعنى جعلا له شركاء فيما آتاهما

وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضى الله عنه أنه فسر الاية بذلك وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الاية ؛ ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عدل عنه هو ولا غيره ، لا سيما مع تقواه لله وورعه ، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابى ، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم ، مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما ؛ كما سيأتى بيانه إن شاء الله ، ألا إننا برئنا من عهدة المرفوع والله أعلم .

« فأما الاثار فقال محمد بن إسحاق بن يسار عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال : كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيعبدهم لله ويسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت ، فأتاهما إبليس فقال : إنكما لو سميتماه بغير الذى تسميانه به لعاش ، قال فولدت له ذكراً فسماه عبد الحارث ففيه أنزل الله يقول (هو الذى خلقكم من نفس واحدة — إلى قوله — جعلا له شركاء فيما آتاهما) إلى آخر الاية .

وذكر آثاراً أخرى فى ذلك . ثم قال :

« وهذه الاثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب ، وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » ثم أخبارهم على ثلاثة أنواع :

فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ، ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً ، ومنها ما هو مسكوت عنه ، فهو المأذون فى روايته بقوله عليه السلام « حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج »

وهو الذى لا يصدق ولا يكذب لقوله « فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » ، وهذا الأثر هو من القسم الثانى أو الثالث ؟ فيه نظر . فأما من حدث به من صحابى أو تابعى فإنه يراه من القسم الثالث ، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى رحمه الله فى هذا : وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، وانما المراد من ذلك المشركون من ذريته ، ولهذا قال الله (فتعالى الله عما يشركون)

ثم قال : فذكره آدم وحواء أولا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين وهو كالاستطراد من ذكر الشخص الى الجنس ؛ كقوله (ولقد زينـــا السماء الدنيا بمصابيح) الاية

ومعلوم أن المصابيح وهى النجوم التى زينت بها السماء ليست هى التى يرمى بها وانما هذا استطراد من شخص المصابيح الى جنسه ، ولهذا نظائر فى القرآن والله أعلم ، انتهى سياق ابن كثير ، وقد أصاب كنه الحقيقة فى قوله : ان هذه الاثار مأخوذة من الاسرائيليات ؛ ولما كانت طعناً فى عقيدة أبوينا آدم وحواء عليهما السلام بما تبطله عقائد الاسلام ، وجب الجزم ببطلانها وتكذيبهم فيها .

المشكلة الثامنة

رؤيته تعالى فى الآخرة[1]

قال تعالى (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك ، قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) .

وهذه الآية تتعارض مع قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) .

كم كنت أتمنى أن لا يقع بين المسلمين من التفرق والخلاف الذى وصل إلى تكفير بعضهم بعضاً بمناسبة هذه المسألة ، وكنت أتمنى أن يعذر بعضهم بعضاً فيها ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه . . .

رؤية الرب تعالى فى الآخرة تضافرت عليها النصوص القرآنية الصريحة ، والأحاديث النبوية الصحيحة ، ولكن بعض علماء الكلام مالوا إلى النفى تنزيها لله سبحانه . وأخذ الشعراء منهم يهجون أهل السنة أهل الاثبات ، وكان من الطبيعى أن يرد شعراء أهل السنة عليهم ؛ فكانت معركة حامية لم يسلم منها أحد .

ولا أبيح لنفسى أن أنقل شيئا مما قاله هؤلاء فى أولئك ، ولا أولئك فى هؤلاء ، وهو يقطع نياط القلب ولا حول ولا قوة إلا بالله .

كان جميع المسلمين فى الصدر الأول يصفون الله تعالى بجميع ما وصف به نفسه فى كتابه وعلى لسان رسوله من غير تشبيه له بأحد من خلقه ، ومن غير هذه الفلسفة الكلامية التى لم يشرعها الله تعالى ولا أنزل بها من سلطان ، ولذلك استنكر جميع أئمة السلف علم الكلام وعدوه بدعة سيئة ؛ ومن خاض فيه بعد ذلك من أتباعهم فلأنهم ظنوا أنه يتوقف عليه إبطال البدع وإزالة الشبهات المشكلة فى الدين لا لذاته ، وأرادوا به إزالة الخلاف فزادهم خلافا وافتراقا ، حتى صار أكثرهم يزعم أن العقائد الصحيحة لا تعرف إلا به ، ويحصرها كل فريق

---

(١) من المنار بتصرف

فى مذهبه ، ولا سلامة للمسلمين فى دينهم ودنياهم إلا بالرجوع فى الدين المحض إلى ما كان عليه السلف ، وفى أمور الدنيا إلى ما أثبته العلم والتجارب فى هذا العصر ، وأن ينبذوا جميع الأسباب والكتب التى كانت مثار الخلاف والتفرق وراء ظهورهم ، ولا يجعلوا قول عالم من علمائهم ولا فهمه سببا للتعادى والتفرق بينهم ، بل يعدوا كل ما ليس قطعيا من كتاب ربهم وسنة رسولهم واجتماع سلفهم من الاجتهاد الذى يعذر به من قام دليله عنده ومن وثق به ولا يكون حجة على غيره ، فبهذا يزول ضرر اختلاف المذاهب فى الأصول والفروع ، ويترا جع الجميع إلى وحدة الدين وأخوة الإسلام : فينالوا من سعادة الدنيا ثم الاخرة ما شرع الله لهم الدين لأجله .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يعذر أصحابه فى اختلاف فهمهم للنصوص ويقرهم على ما كان للاجتهاد فيه وجه وجيه ، كأخذ بعضهم بظاهر نهيه إياهم عن صلاة العصر إلا فى بنى قريظة إذ ذهب بهم إليهم ، وأخذ الاخرين بفحواه وهو عدم التخلف : فصلى هؤلاء فى الطريق وأدركوا معه بنى قريظة فى الموعد ، ولم يصل أولئك العصر إلا فيها ، وكما فهم بعضهم تحريم الخمر والميسر من آية البقرة التى رجحت اثمهما على منافعهما فتركوهما ، ولم يتركهما من لم يفهم ذلك وهم الأكثرون إلا بعد نزول النص القطعى باجتنابهما .

فإذا محصنا أسباب الخلاف من جهة النصوص وجدها وجدنا لكل من النفاة للرؤية والمثبتين لها ما يصح أن يكون له عذراً عند الاخر يمنع جريمة التفرق فى الدين ، وجعل أهله أحزابا وشيعا متعادية غير مبالية بما ورد فيه من الوعيد الذى كاد يجعله كالكفر ما دام كل منهم يعلم أن الاخر يؤمن بأن جميع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم حق ، وأن الخلاف محصور فى اختلاف الفهم .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية فهم دقيق فى اثبات رؤيته تعالى من آية (لا تدركه الأبصار) قال : إن الله تعالى ذكر هذه الاية فى مقام التمدح ؛ وإنما يكون المدح بالأوصاف الثبوتية لا بالعدم المحض ؛ وما تمدح تعالى بأمر سلبى أو عدمى إلا إذا تضمن معنى ثبوتيا كنفى السنة والنوم المتضمن لكمال القيومية ونفى الموت المتضمن لكمال الحياة ونفى الشريك والظهير المتضمن لكمال الربوبية والإلهية ،

ونفى الشفاعة عنده إلا بإذنه المتضمن لكمال توحيده وغناه عن خلقه ، ونفى المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته قال فكذلك نفى إدراك الأبصار ليس معناه أنه لا يُرى بحال ، لأن هذا يشاركه فيه العدم المحض ، والرب جل جلاله يتعالى أن يتمدح بما يشاركه فيه العدم المحض ، فالمعنى اذن أنه يُرى ولا يدرك ولا يحاط به - كنظائره - فقوله (لا تدركه الأبصار) يدل على غاية عظمته وانه أكبر من كل شيء ، وانه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به ، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء وهو قدر زائد على الرؤية :

• • •

ليس فى الرؤية البصرية نص أصولى ولا لغوى متواتر قطعى الرواية والدلالة يجعلها من العقائد المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة ، وليست مما كان يدعى إليه فى تبليغ الدين مع التوحيد والرسالة بحيث يكون من يجهلها أو ينكرها كافراً ، وإنما هى من غريب العلم إلا على الذى يستنبطه من القرآن كبار العارفين وربما كان فتنة لمن دونهم — وكذلك كان — حتى ان كبار النظار وعلماء البيان قد اختلفوا فى كل من الايات الثلاث الواردة فيها : فى سور الأنعام والأعراف والقيامة ، فجعلها بعضهم مثبتة وبعضهم نافية ، والقاعدة فى دين الرحمة والشريعة السمحة أن الحجة لا تقوم على جميع المكلفين إلا فيما كان قطعى الدلالة لغة ، وأنهم يعذرون باختلاف الأفهام فى غيره كما علم من واقعة تحريم الخمر والميسر ، فإن آية البقرة تدل على التحريم بمقتضى القاعدة المعروفة عند الفقهاء ، وهى تحريم ما تغلب المفسدة فيه على المصلحة ويرجح الضرر فيه على النفع ، وقد نطقت الاية بهذا الترجيح فى الخمر والميسر (وإثمهما أكبر من نفعهما) وهو ما فهمه بعض خواص الصحابة فتركوهما ولم يكلف جميع المسلمين تركهما إلا بعد نزول آية المائدة التى هى نص قطعى لا يحتمل التأويل إذ نطقت بأنهما رجس من عمل الشيطان وصرحت بالأمر باجتنابه ؛ وهو أبلغ من الأمر بالترك .

وما من مسألة ذكرت فى القرآن بنص غير قطعى الدلالة إلا ولله تعالى حكمة فى عدم القطع بها ؛ وقد بين حكماء العلماء حكمة ذلك فى الخمر والميسر بأن شدة افتتان الناس بهما كانت تقتضى أن يشق على الناس تركهما دفعة واحدة حتى يتعذر

على بعض المؤمنين من ضعاف الإيمان تركهما ويتعسر على بعض ؛ وينفر غير المسلمين من الاسلام ، فكان من حكمة الرب ورحمته جل جلاله أن يحرمهما بالتدريج ؛ ولا سيما الخمر فإنه أنزل آية تقتضى ترك الخمر فى عامة النهار وناشئة الليل وهى قوله (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) وآية يفهم منها دقيق العلم قوى الايمان التحريم فيتركها فى كل وقت وهى آية سورة البقرة ، ثم صرح بعد ذلك بسنين بالاجتناب على سبيل القطع .

لولا غفلة العلماء الذين طعن بعضهم فى علم المخالف له فى مسألة الرؤية وفى دينه عن هذه الحكمة وتلك القاعدة لعذر كل منهم الاخر ، ولم يجعلوا الخلاف فيها عصبية مذهبيه ؛ ولعلم المثبتون لها منهم أن الله تعالى لو أراد أن تكون عقيدة عامة وركناً من أركان الإيمان لبين ذلك فى آية صريحة لا تحتمل التأويل ؛ ناطقة بأنه يرى بالأبصار عيانا بلا كيف ولا إحاطة ولا تمثيل ؛ ولقال النبي صلى الله عليه وسلم حين عرّف الايمان فى حديث جبريل بعد قوله « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر » وأن المؤمنين يرون ربهم فى الاخرة بأبصارهم عيانا بلا كيف ولا تشبيه — ولأمر بتلقين هذا لكل من يدخل فى الاسلام ؛ ولتواتر عنه وعن أصحابه الجرى على ذلك حتى يكون معلوما من الدين بالضرورة ، وإذاً لما وقع فيه خلاف .

فالحكمة الظاهرة لعدم النص القطعى فى القرآن على المسألة أنها مما تتحير فيه العقول ، وربما كانت مما يدخل فى عموم ما رواه مسلم فى مقدمة صحيحه عن ابن مسعود « ما أنت بمحدث قوما حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » .

وأما حديث عائشة رضى الله عنها وهو فى الصحيح « من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية » فهو نفى للرؤية فى الدنيا لا فى الاخرة كما قال بذلك الجمهور ، ولا تقاس شئون البشر فى الاخرة على شؤونهم فى الدنيا ، لأن لذلك العالم سننا ونواميس تخالف سنن هذا العالم ونواميسه حتى فى الأمور المادية كالأكل والشرب والمأكول والمشروب ؛ فماء الجنة غير آسن فلا يتغير كماء الدنيا بما يخالطه أو يجاوره فى مقره أو جوه ، وخمرها ليس فيها غول يغتال العقل

ولا يصدعون عنها ولا ينزفون ، ولبنها لا يعتريه فساد ؛ ولا تخالطه جنة (ميكروبات) أمراض ، وكذلك فاكهتها وثمراتها هى على كونها أعلى وأشهى مما فى الدنيا لا تفسد .

قال ابن عباس : ليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة إلا الأسماء وكذلك أمزجة أهلها ، هى أصح وأسلم من أمزجة أهل الدنيا حتى إنهم يأكلون ويشربون فيكون هضمهم بالتبخر ورشح العرق .

والخلاصة أن رؤية العباد لربهم فى الاخرة حق ، وأنها أعلى وأكمل النعيم الروحانى الذى يرتقى إليه البشر فى دار الكرامة والرضوان ؛ وأنها أحق ما يصدق عليه قوله تعالى فى كتابه المجيد (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وقوله فى الحديث القدسى الذى رواه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وأن هذا وذاك مما يدل على مذهب السلف الذى عبر بعضهم عنه بأوجز عبارة اتفق عليها جميعهم وهى « إنها رؤية بلا كيف » ويؤيد ذلك اضطراب جميع أصناف العلماء فى النصوص الواردة فى نفيها وإثباتها ، سواء منهم أهل اللغة وأساطين البيان ، ونظار الفلسفة وعلم الكلام ، ورواة الأحاديث والاثار ، فلم تتفق طائفة من هؤلاء على قول فصل قطعى تقنع به بقية الطوائف بدليلها اللغوى أو الأصولى أو العقلى أو فهم النص النقلى ، ولكن من نظر فى جميع ما قالوه نظر استقلال وانصاف يجزم بأن ما كان عليه عامة السلف من إثبات كل ما يصح به النقل وتفويض تأويله الذى يكون عليه فى الاخرة إلى الله عز وجل هو الحق الذى يطمئن به القلب ويؤيده العلم والعقل ، فهو الأسلم والأحكم والأعلم (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

المشكلة التاسعة[1]

قال تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين)

(وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) الظهور جمع ظهر وهو العمود الفقرى لهيكل الإنسان الذى هو قوام بنيته ومركز النخاع الشوكى الذى عليه مدار حياته ، فيصح أن يعبر به عن جملة وجوده الجسدى الحيوانى ؛ والذرية سلالة الانسان من الذكور والاناث .

والمعنى : واذكر أيها الرسول ما أخذه الله من ميثاق الفطرة والعقل على البشر عامة ، إذ استخرج من بنى آدم ذريتهم بطناً بعد بطن ، فخلقهم الله على فطرة الاسلام ، وأودع فى أنفسهم غريزة الايمان ، وجعل من مدارك عقولهم الضرورية أن كل فعل لا بد له من فاعل ، وكل حادث لا بد له من محدث ؛ وأن فوق العوالم الممكنة القائمة على سنة الأسباب والمسببات ، والعلل والمعلولات سلطاناً أعلى على جميع الكائنات ، هو الأول والآخر ؛ وهو المستحق للعبادة وحده

وهذا معنى قوله تعالى (واشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا) أى أشهد كل واحد من هذه الذرية المتسلسلة على نفسه بما أودعه فى غريزته واستعداد عقله قائلا قول إرادة وتكوين لا قول وحى وتلقين : ألست بربكم ؟ فقالوا كذلك بلغة الاستعداد ولسان الحال ، لا بلسان المقال : بلى أنت ربنا والمستحق وحده لعبادتنا ، فهو من قبيل قوله تعالى بعد ذكر خلق السماء (فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين)

هذا ما يتبادر إلى الفهم من الايات لذاتها . ولكن ورد فى أخذ الذرية من بنى آدم وإشهادهم على أنفسهم أحاديث وآثار لا يمكن أن تعرف إلا من خبر الوحى . وقد كانت موضوع بحث ومناقشة بين علماء المعقول والمنقول فنورد أمثل ما قالوه فيها . قال الامام ابن كثير فى تفسيره لهذه الاية .

---

(١) للسيد رشيد رضا رحمه الله

وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم .

قال الامام أحمد بسنده عن النبى ﷺ قال « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتدياً به ؟ قال فيقول نعم ، فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بى » أخرجاه فى الصحيحين .

وقال الامام أحمد بسنده عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلا قال : ألست بربكم : قالوا بلى شهدنا : أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين)

وقال الترمذى عند تفسير هذه الاية بسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة »

فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه وأشهدهم على أنفسهم ، لكن أكثر هذه الأسانيد فيها شىء ، ولذلك قال قائلون من السلف والخلف إن المراد بهذا الاشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد ، ولهذا قال (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) ولم يقل من آدم (من ظهورهم) ولم يقل من ظهر ذرياتهم ، أى جعل نسلهم جيلا بعد جيل : وقرنا بعد قرن ، كقوله تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) وقال (ويجعلكم خلفاء الأرض) وقال (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين)

ثم قال (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى) أى أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالا وقالا ، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله (قالوا شهدنا على أنفسنا) الاية ، وتارة تكون حالا كقوله تعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) أى حالهم شاهد عليهم بذلك ، لا أنهم قائلون ذلك .

قال ابن القيم : والحاصل إنه سبحانه قد أثبت الحجة على كل منفوس ممن يبلغ

وممن لم يبلغ بالميثاق الذى أخذه عليهم ، وزاد على من بلغ منهم الحجة بالآيات والدلائل التى نصبها فى نفسه وفى العالم وبالرسل المنفذة إليهم مبشرين ومنذرين ، وبالمواعظ بالمثلات المنقولة اليهم أخبارها ، غير أنه عز وجل لا يطالب أحداً منهم من الطاعة إلا بقدر ما لزمه من الحجة ، وركب فيهم من القدرة ، وآتاهم من الأدلة ؛ وبين سبحانه ما هو عامل فى البالغين الذين أدركوا الأمر والنهى وحجب عنا علم ما قدره فى غير البالغين ؛ إلا أنا نعلم أنه عدل لا يجور فى حكمه ، وحكيم لا تفاوت فى صنعه ، وقادر لا يسأل عما يفعل ، له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

ونازع هؤلاء غيرهم فى كون هذا معنى الاية ؛ وقالوا معنى قوله (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) أى أخرجهم وأنشأهم بعد أن كانوا نطفاً فى أصلاب الاباء الى الدنيا على ترتيبهم فى الوجود وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم بما أظهر لهم من آياته وبراهينه التى اضطرهم إلى أن يعلموا أنه خالقهم ؛ فليس من أحد إلا وفيه من صنعة ربه ما يشهد على أنه باريه ونافذ الحكم فيه ، فلما عرفوا ذلك ودعاهم كل مايرون ويشاهدون إلى التصديق به كانوا بمنزلة الشاهدين والمشهدين على أنفسهم بصحته كما قال فى غير هذا الموضع (شاهدين على أنفسهم بالكفر) يريد هم بمنزلة الشاهدين وإن لم يقولوا نحن كفرة .

وهذه الاية (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) مطابقة لقول النبى ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة »

المشكلة العاشرة

هل ينتفع الأموات بعمل الأحياء ؟

قال الله تعالى (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) وقال (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه)

القرآن الكريم مملوء بالايات فى هذا المعنى ؛ وتقرير هذه القاعدة ، وهى أن الإنسان فى الاخرة يجزى بعمله لا بعمل غيره (كل نفس بما كسبت رهينة) (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) غير أن المسلمين اليوم وقبل اليوم درجوا على الانصراف عن هذه القاعدة ، فتراهم يقرءون القرآن على الموتى ؛ ويتصدقون عنهم ؛ ويدعون لهم ، سواء فى ذلك الولد على الوالد ، أو الوالد على الولد ، أو الزوجة على زوجها ، أو الزوج على زوجته ؛ أو الأقارب والأصهار . وإذا صارحناهم بأن هذا خطأ لا يقره دين ولا شريعة ، قالوا كيف هذا والناس عليه من قديم ، والشيوخ فى هذا العصر لا ينكرون

فإذا قلنا لهم إن الحجة فى كلام الله ورسوله فقط لا فى عمل الجماهير وسكوت الشيوخ ، قالوا إن شيخ الاسلام ابن تيمية قد جوز هذا فى بعض كتبه ، وهو عالم كبير وله شهرة واسعة فى الدفاع عن السنة ومحاربة البدع

ونحن نورد هنا ما قاله ابن تيمية وما رد به عليه أستاذ جليل محقق يحب ابن تيمية ؛ ولكن حبه للحق أكبر ؛ قال الأستاذ[1]

قال ابن تيمية : من اعتقد أن الانسان لاينتفع إلا بما عمله فقوله باطل من وجوه :

(أحدها) أن الانسان ينتفع بدعاء غيره ؛ وهذا انتفاع بعمل الغير .

والجواب : إن الداعى للانسان إما أن يكون ولده وإما أن يكون غير ولده ، أما الولد فقد بينت السنة أن عمله استمرار لعمل الوالد ، إذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث . . أو ولد صالح يدعو له ، فدعوة الولد من سعى الوالد وعمله وأما اذا كان الداعى غير ولده ، فقد أثبت الواقع المشاهد الذى لا ينكره

---

(١) هو الأستاذ الكبير الشيخ أبو الوفا محمد درويش رحمه الله .

إلا معاند أن أحداً لا يدعو لأحد الا لإحسان أو بر نال الداعى من المدعو له ، وما رأينا أحداً يدعو لأحد اعتباطاً أو مجانا .

ولا شك أن البر والاحسان الى المسلمين من الطاعات . وهى من كسب الشخص وسعيه وعمله ، فإذا استجاب الله دعاء الداعى للبار المحسن ، كان ذلك ثواباً لإحسانه وبره ، وبذلك يكون الشخص قد انتفع بكسبه وسعيه وعمله ؛ اذ لولا الاحسان والبر ما دعا الداعى .

فقد انتفع الشخص بكسبه وسعيه وعمله لا بعمل غيره

واذا فرضنا أن الداعى لم ينله من المدعو له احسان ولا بر ، أفلا يدعو له بالخير لأنه من اخوانه المسلمين المؤمنين ، والايمان رحم بين المؤمنين ؛ ولولا اسلامه وايمانه ما دعا له ، لأن المسلم يعتبر المسلمين إخوة ويعتبر الدعاء لهم من البر بهم ، والاسلام والايمان من كسب العبد وسعيه وعمله ، فإذا انتفع المسلم باستجابة الله تعالى لدعاء مسلم من إخوانه ، كان انتفاعه بسبب إسلامه وإيمانه ، أى بسبب كسبه وعمله قبل كل شىء

والله تعالى جعل الدعاء للمؤمن من ثواب إيمانه ، قال تعالى (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)

فلولا صبرهم ما سلمت عليهم الملائكة ؛ وتسليم الملائكة دعاء بالسلامة وهو ثواب صبرهم ، وصبرهم من كسبهم وسعيهم وعملهم ، وهذا شىء من الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى إقامة دليل ولا برهان ، فهو فى حكم البديهيات التى لا تفتقر إلى نظر ولا استدلال .

فثبت بذلك أن انتفاع المؤمن بدعاء المؤمنين ، سواء عليه ، أكانوا من ولده أم من غيرهم ؛ انما هو انتفاع بكسبه وسعيه وعمله لا بكسب غيره ولا بسعى سواه ولا بعمل الناس .

قال ابن تيمية : ثانيها ان النبى صلى الله عليه وسلم يشفع لأهل الموقف فى الحساب ، ثم لأهل الجنة فى دخولها ، ثم لأهل الكبائر فى الخروج من النار ، وهذا انتفاع بعمل الغير .

ونقول وبالله نعتصم وبقوله الحق نتأيد : أما فى الموقف فالشفاعة لا تنفع الكفار ، ولا هى بمغنية عنهم شيئاً ؛ فهم منتقلون من كربة إلى كربات ، ومن شدة إلى شدات . وحسبنا دليل على ذلك قول الله تعالى فى سورة البقرة (واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ٤٨) .

والايات فى معناها كثير .

فكيف يقال مع هذه النصوص الصريحة : انهم انتفعوا بشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم . أو إنهم انتفعوا بعمل غيرهم ؟ وهم أعداء الله وأعداء رسوله الذين حبطت أعمالهم ، وضل سعيهم ، ولا يقام لهم يوم القيامة وزن ، ولا تنالهم من الرسول صلى الله عليه وسلم شفاعة ؛ ولا من الله تعالى رحمة .

وأما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الاخر فتكون شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ثواباً لايمانهم ، ولولا إيمانهم لم ينالوا هذه الشفاعة ، فهم فى واقع الأمر وحقيقته قد انتفعوا بكسبهم واستفادوا بسعيهم ؛ وقطفوا ثمرة عملهم فكيف يقال إنهم انتفعوا بعمل غيرهم ، وما انتفاعهم بعد فضل الله ورحمته إلا بمحض عملهم .

وأما شفاعته صلى الله عليه وسلم لأهل الجنة فى دخولها فهى كذلك ثواب أعمالهم لقوله تعالى (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) فلولا إنهم آمنوا وعملوا الصالحات ما دخلوا الجنة ولا وجدوا ريحها ولا نالتهم شفاعة الرسول ﷺ ، فهم فى حقيقة الأمر وواقعه ينتفعون بسعيهم وكسبهم وعملهم ؛ ولولا أعمالهم ما استحقوا شفاعة الرسول ﷺ .

فكيف يقال إنهم انتفعوا بعمل غيرهم ؟

وأما شفاعة الرسول ﷺ لأهل الكبائر فى الخروج من النار ؛ فإنها لن تكون إلا بعد أن تمسهم النار بذنوبهم ويصيروا حمما أو فحما كما جاء فى حديث مسلم . ولولا أنهم مؤمنون ما أذن الله فى الشفاعة لهم ، فالشفاعة لهم وخروجهم من النار من ثواب إيمانهم . وإيمانهم من كسبهم وسعيهم وعملهم . فكيف يقال : إنهم انتفعوا بعمل غيرهم .

ثم قال ابن تيمية : ثالثها : أن كل نبي وصالح له شفاعة وذلك انتفاع بعمل الغير

ونقول : إن هذه الشفاعات لا تنفع إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ، لقوله تعالى (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ٢٦ النجم) والايات فى معناها كثيرة .

فالشفاعة مشروط فيها بحسب نصوص القرآن الكريم الإذن والرضا ؛ والله لا يرضى عن القوم الفاسقين ، ولا يأذن فى الشفاعة لهم ؛ ولا يأذن للنبي ﷺ فى الشفاعة لأهل الكبائر لخروجهم من النار إلا بعد أن تمسهم النار بذنوبهم وتطهرهم من أوزارهم ويبقى إيمانهم وهو موضع رضا الكريم سبحانه .

فشفاعة الأنبياء والصالحين لا تكون إلا بعد الأذن والرضا وإذاً فتكون للمؤمنين لا لغيرهم ، والله تعالى قد جعل هذه الشفاعات ثوابا للايمان وصالح العمل فهؤلاء الذين يشفع لهم الأنبياء والصالحون فى حقيقة الأمر وواقعه منتفعون بإيمانهم وأعمالهم وسعيهم وكسبهم ، ولولا ذلك ماشفع لهم شافع ولا نفعتهم شفاعة الشافعين

فكيف يقال : إنهم انتفعوا بعمل غيرهم ؟

ثم قال ابن تيمية :

رابعها . إن الملائكة يدعون ويستغفرون لمن فى الأرض وذلك منفعة بعمل الغير

ونقول : إن الله تعالى بين لنا فى كتابه العزيز دعاء الملائكة واستغفارهم ؛ وبين لنا كذلك من هم أهل الأرض تستغفر لهم الملائكة ، فقال تعالى فى سورة غافر (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ٧ ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم ٨ وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ؛ وذلك هو الفوز العظيم ٩) .

ألم تر كيف وقف الملائكة عند حدهم ولم يطلبوا من ربهم إلا ما يقتضيه عدله وحكمته ؟

ليس هذا الدعاء والاستغفار إلا تسبيحا لله وتنزيها له بذكر صفات فضله وعدله ورحمته ، فحين أخبر الله تعالى عن ملائكته الكرام أنهم يستغفرون ،

لم يذكر أنهم يستغفرون لكل من دب ودرج على وجه الأرض . ولكن ذكر أنهم يستغفرون للذين آمنوا فدل على أن استغفار الملائكة للمؤمنين من ثواب إيمانهم

وحين حكى سبحانه قوله بين أنهم لم يقولوا : اغفر لكل مصر على ذنبه ، أو مجاهر بمعصية ربه . بل بين أنهم يقولون (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك)

فقد أثنوا على الله تعالى بسعة الرحمة والعلم ، وسألوه أن يغفر للذين تابوا واتبعوا سبيله : أى سلكوا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

ولا جرم أن الله تعالى وعد أن يغفر لهؤلاء جميعا .

فالملائكة الكرام لا يسألون ربهم إلا تصديق وعده ؛ بدليل قوله تعالى (ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم) .

وحين طلبوا ذلك لمن يتصل بهم من أولى قرباهم ، لم يطلبوه لكل قريب ولو خب فى الاثم ووضع ، ولو تمرغ فى حمأة الفساد بل طلبوه لمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . فهم لم يطلبوا المغفرة الا لأهل الصلاح .

فلولا أنهم مؤمنون ، وأنهم تابوا واتبعوا سبيل الله ؛ ولولا أن آباءهم وأزواجهم وذرياتهم صالحون ما استغفرت لهم الملائكة .

اذاً لايكون استغفار الملائكة الا ثوابا لايمانهم وتوبتهم واتباعهم سبيل الله

واذاً فهم ينتفعون بإيمانهم وتوبتهم واتباعهم سبيل الله ، أى أنهم منتفعون بسعيهم وكسبهم وعملهم .

فكيف يقال : ان هؤلاء منتفعون بعمل غيرهم ؟

ثم قال رحمه الله (ثامنها : أن الميت ينتفع بالصدقة عنه والحج والصوم وبالعتق بنص السنة والاجماع ، وهو من عمل الغير) .

ونقول : ان الصدقة التى وردت السنة بانتفاع الميت بها هى ما يقوم بأدائها ولده من بعده ومثلها العتق والحج والصوم ؛ وقد أسلفنا أن ولد الميت من كسبه بنص الحديث الشريف : وقد بينا أن كل مايعمله الولد نيابة عن والديه من الصدقة والحج فإنه لهما وينتفعان به : وذلك من فضل الله ورحمته ، فليس للوالدين الا

ما سعيا بنفسهما أو بولدهما الذى يثوب عنهما وهو كسبهما .

قال ابن تيمية : ان المدين الذى امتنع الرسول صلى الله عليه وسلم من الصلاة عليه حتى قضى دينه أبو قتادة وقضى دين الآخر على بن أبى طالب ، وانتفع بصلاة النبى ﷺ وبردت جلدته بقضاء دينه وهو من عمل الغير) .

ونقول : إن المدين الذى مات وعليه دين يقضى دينه مما ترك ، إذ لا تركة إلا بعد وفاء الديون ، فإن لم يكن له مال أصبح دينه فى ذمة ورثته يجب عليهم أداؤه وهذا المدين إن كان قد استدان وفى نيته أداء الدين ولكن الموت أعجله عن الوفاء فلم يتح له الوفاء حتى مات ، فلا إثم عليه ، إذ لم يكن عدم الوفاء بتقصير منه ، ولا بسبق نية واصرار . وان كان قد استدان وهو عازم على ألا يوفى ، فإن نية السوء هذه تلازمه منذ وصل مال الدائن إلى يده حتى لقى حتفه ، وهو مؤاخذ بها ومسئول عنها . ولا يخليه من تبعتها أن الدين قد أداه عنه غيره ، لأنه ليس مسئولا عن الدين فقط ، بل عن نية الغدر والاتلاف أيضاً ، فلا يغنى عنه أن غيره أدى عنه الدين

ولكن الله تعالى لا يرضى أن تضيع الحقوق ، فجعل الدين فى ذمة الورثة يدفعونها إلى الدائن ان كانوا موسرين ، فإن كانوا معسرين ، فنظرة إلى ميسرة ، وقد شدد الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم فى أداء الدين ، حتى لقد كان لا يصلى على المدين إذا مات ولم يخلف ما يقضى به دينه ليحمل جماعة المسلمين على أن يتضامنوا فى أداء دينه حتى يظفر بصلاة النبى ﷺ على جنازته .

والشريعة الإسلامية سنت مبدأ التضامن الاجتماعى . والتكافل القومى ، وجعلت مال الشخص فى يده يتصرف فيه بالمعروف كيف يشاء ، مالم تكن بجماعة المسلمين حاجة ماسة اليه فإذا مست اليه حاجتهم فهو مالهم جميعاً قال تعالى (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) أى لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل ، ولكنه أضاف الأموال اليهم جميعاً ليعلم كل فرد أن المال الذى فى يده هو مال الأمة ، وأن أموال الأفراد تكون الثروة العامة للأمة ، فأبو قتادة حين دفع دين الميت المدين لم يزد على أن تصدق على ورثته بما يؤدى دينه ، فإن كان هناك ثواب يرجى ، وأجر يمنح ، فهو لهذا المتصدق ولا شىء منه للميت اذ لا سعى له ولا عمل ، وان كان

الميت سيء القصد ، فاسد النية مات وهو مصر على عدم الوفاء ، فإن وفاء أبي قتادة لا يغني عنه شيئا .

فبطل القول بأن في هذا انتفاع الميت بعمل غيره ؛ وثبت أن ليس للانسان إلا ما سعى ، ولا يظلم ربك أحداً .

قال ابن تيمية : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن صلى وحده : ألا رجل يتصدق على هذا فيصلي معه ؟ قد حصل له فضل الجماعة بفعل الغير) .

نقول : بل حصل له فضل الجماعة بنيته ، إذ لو بقي على نية الصلاة فذاً لم يحصل له فضل الجماعة ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى) ولو خرج من بيته يريد أن يصلي في المسجد في جماعة ، فلم يجد أحداً واضطر أن يصلي منفرداً لكان له أجر نيته ، ولو اكتظ المسجد بالمصلين وصلوا كلهم أفذاذاً لم يكن لأحد منهم فضل الجماعة .

وإذاً لا يكسب فضل الجماعة إلا بالنية ، ونية الرجل من كسبه وسعيه وعمله ؛ فلا يصح أن يقال : ان هذا حصل له فضل الجماعة بعمل غيره ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

ثم قال ابن تيمية : الصلاة على الميت والدعاء له في الصلاة انتفاع الميت بصلاة الحي عليه ، وهو عمل غيره) .

ونقول : كلا بل انتفاعه بعمل نفسه ، فلولا أنه من زمرة المسلمين ما فرض الله على المسلمين الصلاة عليه ، فصلاة المسلمين عليه ، ودعاؤهم له من ثواب إيمانه ، وإيمانه من كسبه كما تقدم ، فلو لم يكن مؤمناً ما صلى عليه المؤمنون ، ولا دعوا له .

. . .

ويظهر أن الامام ابن تيمية قد رجع عن كل ما قاله هنا ؛ فقد قال في بعض فتاويه (فلم يكن من عادة السلف إذا صلوا أو صاموا أو حجوا تطوعا أو قرأوا القرآن أن يهدوا ثواب ذلك للموتى ـ أنظر مختصر الفتاوى لابن تيمية ص١٧١) .

ويقول : لم يكن من عادة السلف اهداء ذلك إلى موتى المسلمين بل كانوا يدعون لهم ، فلا ينبغي الخروج عنهم ـ انظر تفسير المنار (ص ٢٦٢ جـ ٨) .

فصل

فى قراءة القرآن على الموتى

إذا كان العلامة (أبو الوفاء محمد درويش) قد قوَّم الخطأ الذى سقط فيه الإمام ابن تيمية فى البحث السابق ؛ فقد سبقه المرحوم صاحب المنار إلى تقويم الخطأ الذى تورط فيه العلامة ابن القيم ، فقد أطال ابن القيم فى جواز قراءة القرآن للموتى قياساً على الصدقة والدعاء . . الخ .

وكان هذا التقويم من هذين الشيخين آية جديدة على ما أوتيا من شجاعة أدبية ، وأن حبهما للامام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم لم يمنعهما من الرد عليهما ؛ وآية جديدة على أن العصمة لله وحده .

وقد أطال صاحب المنار فى تفنيد أدلة جواز قراءة القرآن للموتى (ج ٨ تفسير) وختم هذا البحث القيم بقوله :

وإذ قد علمت أن حديث قراءة سورة يس على الموتى غير صحيح وان أريد به من حضرهم الموت ، وانه لم يصح فى هذا الباب حديث قط ، كما قال المحقق الدارقطنى فاعلم أن ما اشتهر وعم البدو والحضر من قراءة الفاتحة للموتى لم يرد فيه حديث صحيح ولا ضعيف ، فهو من البدع المخالفة لما تقدم من النصوص القطعية ، ولكنه صار بسكوت اللابسين لباس العلماء وباقرارهم له ثم بمجاراة العامة عليه من قبيل السنن المؤكدة أو الفرائض المحتمة .

وخلاصة القول أن المسألة من الأمور التعبدية التى يجب فيها الوقوف عند نصوص الكتاب والسنة وعمل الصدر الأول من السلف الصالح ؛ وقد علمنا أن القاعدة المقررة فى نصوص القرآن الصريحة والأحاديث الصحيحة أن الناس لا يجزون فى الآخرة إلا بأعمالهم (٨٢ : ١٩ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً) (٣١ - ٣٢ واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً) وأن النبى صلى الله عليه وسلم بلغ أقرب أهل عشيرته إليه بأمر ربه أن « اعملوا لا أغنى عنكم من الله شيئاً » فقال ذلك لعمه وعمته ولابنته سيده النساء . وأن مدار النجاة فى الآخرة على تزكية النفس بالايمان والعمل الصالح ، والثواب ما يثوب ويرجع

إلى العامل من تأثير عمله فى نفسه — الخ ما تقدم شرحه مع التذكير بالآيات الكثيرة والأحاديث فيه ، وكل ذلك من الاخبار وقواعد العقائد فلا يدخلها النسخ .

وورد مع ذلك الأمر بالدعاء لأحياء المؤمنين وأمواتهم فى صلاة الجنازة وفى غيرها ، فالدعاء عبادة ثوابها لفاعلها سواء استجيب أم لا ، ويستحيل شرعاً وعقلا استجابة كل دعاء لتناقض الأدعية ولاقتضاء الاستجابة ألا يعاقب فاسق ولا مجرم إلا إذا اتفق وجود أحد لا يدعو له أحد برحمة ولا مغفرة فى صلاة ولا غيرها ، ولما يترتب على ذلك من تعطيل كثير من النصوص أو عدم صدقها

وورد فى الأخبار جواز صدقة الأولاد عن الوالدين ودعائهم لهما وقضاء ماوجب عليهما من صيام أو صدقه أو نسك ، وقد بينا حكمته مع النصوص فيه ، والظاهر من هذا أن الوالدين ينتفعان ببعض عمل أولادهما لأن الشارع ألحقهم بهما ، فيسقط عنهما ما ينوبان عنهما فيه من أداء دين الله تعالى كديون الناس .

فمن أراد أن يتبع الهدى ، ويتقى جعل الدين تابعاً للهوى ، فليقف عند النصوص الصحيحة ؛ ويتبع فيها سيرة السلف الصالح ويعرض عن أقيسة بعض الخلف المروجة للبدع ؛ وإذا زين لك الشيطان أنه يمكنك أن تكون أهدى وأكمل عملا بالدين من الصحابة والتابعين فحاسب نفسك على الفرائض والفضائل المجمع عليها والصحيحة التى يضعف الخلاف فيها ، وانظر أين مكانك منها فإن رأيت ولو بعين العجب والغرور انك بلغت مد أحدهم أو نصيفه من الكمال فيها ، فعند ذلك تعذر فى الزيادة عليها ، وهيهات هيهات لا يدعى ذلك إلا جهول مفتون ، أو من به مس من الجنون وأن أكثر المتعبدين بالبدع ؛ مقصرون فى أداء الفرائض أو فى المواظبة على السنن ، ومنهم المصرون على الفواحش والمنكرات ؛ كإصرارهم على ما التزموا فى المقابر من العادات ، كاتخاذها أعياداً تشد إليها الرحال ؛ ويجتمع لديها النساء والرجال والأطفال ؛ ولا سيما فى ليلتى العيدين وأول جمعة من رجب ، وتذبح عندها الذبائح ؛ وتطبخ أنواع المآكل ؛ فيأكلون ثم يشربون ، ويبولون ويغوطون ويلغون ويصخبون ويقرأ لهم القرآن ؛ من يستأجرون لذلك من العميان ، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون .

فصل

هل يتأذى الأموات بعمل الأحياء ؟

قدمنا لك الأدلة الكافية فى عدم انتفاع الأموات بعمل الخير من الأحياء ، فما القول فى الموضوع إذا انعكس الأمر ؟ هل يتأذى الميت إذا صدر من الحى ما حرمه الله ورسوله ؟ ليس فى هذا إلا قوله صلى الله عليه وسلم « ان الميت يعذب ببكاء أهله عليه » رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عمر والمراد به النياحة كما صرح به فى بعض الروايات عنه وعن أبيه ؛ وورد التصريح بعدم المؤاخذة بالبكاء المجرد وقد أوله بعضهم بأنه إنما يعذب بما نيح عليه إذا أوصى أهله به وكان ممن يرضى به ، ويحتمل أن يكون المراد بتعذيب الميت بنواح الحى عليه أنه يشعر ببكائه فيؤلمه ذلك ؛ لا أن الله تعالى يعذبه به ويؤاخذه عليه والله أعلم .

وأخرج ابن حاتم عن ابن أبى مليكة قال : توفيت أم عمرو بنت أبان بن عثمان فحضرت الجنازة فسمع ابن عمر بكاء فقال : ألا تنهى هؤلاء عن البكاء فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الميت يعذب ببكاء الحى عليه » فأتيت عائشة فذكرت لها ذلك فقالت : والله إنك لتخبرنى عن غير كاذب ولا متهم ولكن السمع يخطىء ؛ وفى القرآن ما يكفيكم (ولا تزر وازرة وزر أخرى) .

الإشكاله الحادية عشرة

سنن الله الكونية : هل تتغير — الخوارق والكرامات

رزىء الاسلام بفريق من أبنائه أحبوا أن يخرجوا على كل قديم ولو كان حقاً ، وأقبلوا على كل جديد من الأفكار والآراء ولو كان باطلا ، وقلدوا أوربا فى إنكار كل ما صدر عن الله تعالى متى خالف عقولهم ؛ وشنعوا على من خالفهم بالجمود والجهل ، ورموه بالحرمان من نعمة العقل .

فإذا صرخ فيهم أهل الايمان : قال الله : قال رسوله ، لم يقفوا مكتوفى الأيدى ؛ بل أجابوهم : قال تعالى (ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا) .

ونحن نذكر هنا ما نشره أحد هؤلاء المجددين — زعموا — وما رد به عليه فضيلة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة المدرس بالحرم المكى .

قال المجدد :

ويجب أن يعلم بأن الخلاف الذى قام بين الأنبياء والمصلحين وبين جميع أصناف المخالفين هو فى أمر واحد تحته أمور كثيرة ، هذا الأمر هو أن الأنبياء والمصلحين كافة إنما جاءوا بالنظام والدعوة إلى النظام فى كل شىء وإلى الايمان بهذا النظام . ثم شرح هذا النظام إلى أن قال « ولا انتظار للخوارق والمعجزات التى تطلب من وراء الأسباب ومن وراء القوانين الطبيعية » ثم استدل بقوله تعالى (ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا) ثم قال « فهى لا تغير بل تجرى على وتيرة واحدة أزلا وأبداً . ولا تصرف عن سبيلها بل تمضى فيه غير مبالية بمن هلك ولا بمن نجا » .

وقد قطع بعض الآية عن بقيتها وعن سياقها . ليتأتى له تحريفها . والاستدلال بها على ما ذهب إليه من الباطل : إن الله لا يخرق السنن الطبيعية . والنواميس الآلية الميكانيكية جرياً وراء ما ذهب إليه طبيعيو القرن التاسع عشر . وقرره غوستاف فى آرائه واعتقاده . ولو جاء بالآية تامة مع سياقها قبلها وأراد أن يفهم الحق الذى دلت عليه لما هوى فى تلك الحفرة المادية الدهرية على وجهه .

سابق الآية ولاحقها وسياقها هو (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً استكباراً في الأرض ومكر السيء ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ، أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ؛ وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض ، إنه كان عليما قديراً . ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا)

فأنت ترى أن الآية في سياق تهديد قريش لكفرهم ونفورهم من النذير ، واستكبارهم على دعوته ؛ وأنهم إذا أصروا على كفرهم ومكرهم فلا بد أن يصيبهم ما أصاب أمثالهم من الأمم الماضية ، فإذا جاءهم ذلك فلن يرده عنهم راد ، ولن يحوله عنهم محوّل ، وهي كآية (وما منع الناس أن يؤمنوا إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا) وقوله في ذكر ما أصاب المكذبين من الأمم الماضية (أكفاركم خير من أولئكم ؟ أم لكم براءة في الزبر) وانظر إلى ختام السياق بقوله (وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الارض) بهذه التأكيدات المتكررة من نفي الشأن مع لام الجحود مع التأكيد بزيادة «من» وتنكير «شيء» في سياق النفي ، وتكرير النفي في قوله (ولا في الارض)

فهل يتصور العاقل أن ينقض آخر الكلام أوله ، أو هو الفهم المقلوب ؛ أو هو المادية الآلية وتقرير آلية الكون ونفي اختيار الله وخلقه وقدرته الشاملة ؛ وتسمية ذلك قوة مجنونة أو كالمجنونة : والنعق بحماقات لوبون في آرائه واعتقاداته إذ ادعى أن الخوارق أوهام ، وان نفي تسلسل الاسباب يرجع بنا الى عصور الأساطير ، وإن علم الحياة نقض القول بعلة العلل — يعني الله تعالى وإن الأنبياء والمؤمنين بهم متهوسون ؛ وإن الجنات أمل كاذب ، والآخرة وهم باطل الخ .

يريد الكاتب أن يمزق الدين رقعاً فيخيط منها ثوباً مهلهلا يلبسه تلك الفكرة الدهرية التي ضحك منها أهلوها وسموها فلسفة أطفال وقوانين جحوية ونواميس احتمالية

لو كان لفظ السنة فى الآية يفيد ما يريد الكاتب أن يحملها إياه من أن السنن أزلية أبدية لا تتخلف ولا تتبدل ولا تتغير ، لناقض ما دل عليه القرآن من آيات الله تعالى التى أيد بها أنبياءه كآيات موسى وعيسى وإبراهيم وصالح والنبى محمد ﷺ فيكون القرآن على فهم هذا الكاتب ينقض بعضه بعضاً . وهو ما تولى الله سبحانه وتعالى نفيه عن كتابه بقوله (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) فكيف ساغ فى عقل الكاتب أن ينفى الله أن تبدل السنن والنواميس أزلا وأبداً فى موضع من كتابه ثم يقول فى موضع آخر (قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) ويقول (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) ويقول (ويكلم الناس فى المهد) (ويبرىء الأكمه والأبرص بإذنى ؛ وإذ تحيى الموتى بإذنى ؛ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى) ويقول (إنما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وكيف شق البحر لموسى ؟ وكيف آتى صالحا الناقة مبصرة ؟ وكيف وكيف وكيف ؟ الخ ما ذكر الله عن أنبيائه ورسله وآياتهم وخوارقهم ، ولكن الأمر كما قال الله (وما تغنى الايات والنذر عن قوم لا يؤمنون) (وكذبوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً)

فهل يثبت القرآن فى موضع ما نفاه بتاتا فى موضع اخر ؟ أو يهدم ما بناه أو يتعارض ويتضارب فيدل على أنه من عند غير الله ؟ تعالى الله وتبارك كتابه وصدق رسوله وسائر رسله ، وكذب الدهريون والماديون ومن جرى فى ركاب بغالهم ليظهر بمظهرهم ، وان ضحك منه العقلاء

* * *

وموقف هؤلاء من الدعاء واستجابة الله له وإكرامه لمن شاء بما شاء موقف غريب لا يؤيده الواقع

وكم لله من لطف خفى يدق خفاه عن لب الذكى

وإذا ذهبنا نذكر الوقائع التى تثبت أن لله تعالى تصرفا فى ملكه فوق الأسباب لطال بنا الأمر ؛ على أننا لسنا فى حاجة الى ذلك ، فالأمر ملموس محسوس .

قال موسى بن القاسم : وقع عندنا زلزلة وريح حمراء ، فذهبت الى محمد بن مقاتل فقلت : يا أبا عبد الله ادع الله لنا فأنت امامنا ، فقال : ليتنى لا أكون سبب هلاكم ، فقال موسى بن القاسم رأيت النبى ﷺ تلك الليلة فى المنام فقال : ان الله دفع عنكم بدعاء ابن مقاتل

أما ما أخبرنا عنه المعصوم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، فمنها الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار ، ومنها كرامات أسيد بن حضير ، وكرامة أبى سعيد الخدرى مع اللديغ ، ذلك مما جاء فى الصحيح من كتب السنة المطهرة .

وقد جاءت المخترعات الحديثة تؤيد ما نقل الينا من كرامات هؤلاء الثقات المتقين ؛ فنى ثوان ينتقل بك جهاز الراديو من مصر الى أمريكا الى روسيا الى تونس الى جميع أنحاء العالم بواسطة دوران قرص صغير

ولا يفوتنى أن أصارحك القول أن سبب الكرامة هو الايمان أولا والتقوى ثانيا ، ولا يحب الولى أن يتظاهر بها مطلقا

المشكلة الثانية عشرة

هل نار الآخرة إلى فناء ؟

من المتفق عليه أن كل مخلوق إلى فناء ، وأن كل ما له ابتداء له انتهاء ، ولكن هل النار كذلك ؟

نصوص القرآن والسنة فى هذا الموضوع متعددة متشعبة : وأقوال أئمة التفسير والحديث فيه مضطربة ، فنجد قوله تعالى (وما هم بخارجين من النار) (وما هم منها بمخرجين) ونجد قوله سبحانه (قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء ربك)

وقد تعرض لتفصيل هذا الموضوع العلامة ابن القيم ، فقال يعدد حجج من قال بدوام النار :

(١) ان القرآن دل على ذلك دلالة قطعية ، فإنه سبحانه أخبر أنه عذاب مقيم وأنه لا يفتر عنهم ، وأنه لن يزيدهم إلا عذاباً ، وأنهم خالدون فيها أبداً وما هم بخارجين من النار ، وما هم منها بمخرجين ، وأن الله حرم الجنة على الكافرين ؛ وأنهم لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخيـــاط ، وأنهم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ، وأن عذابها كان غراماً ؛ أى مقيما لازماً ، قالوا وهذا يفيد القطع بدوامه واستمراره .

(٢) ان السنة المستفيضة أخبرت بخروج من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان دون الكفار ، وأحاديث الشفاعة من أولها إلى آخرها صريحة فى خروج عصاة الموحدين من النار ، وأن هذا حكم مختص بهم ، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم ولم يختص الخروج بأهل الايمان .

(٣) ان الرسول وقفنا على ذلك وعلمناه من دينه بالضرورة من غير حاجة بنا إلى نقل معين كما علمنا من دينه دوام الجنة وعدم فنائها

(٤) ان عقائد السلف وأهل السنة مصرحة بأن الجنة والنار مخلوقتان وأنهما لا تفنيان ، بل هما دائمتان ، وإنما يذكرون فناءهما عن أهل البدع

(٥) إنكاره سبحانه على من زعم أنه يسوى بين الأبرار والفجار فى المحيـــا

والمهات ، وعلى من زعم أنه خلق خلقه عبثاً وأنهم إليه لا يرجعون ؛ وأنه يتركهم سدى أى لا يثيبهم ولا يعاقبهم ، وذلك يقدح فى حكمته وكماله وأنه نسبه إلى مالا يليق به وربما قرروه بأن النفوس البشرية باقية ، واعتقاداتها وصفاتها لازمة لها لا تفارقها وإن ندمت عليها لما رأت العذاب فلم تندم عليها لقبحها أو كراهة ربها لها ، بل لو فارقها العذاب رجعت كما كانت أولا . قال تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو رُدوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) فهؤلاء قد ذاقوا العذاب وباشروه ، ولم يزل سببه ومقتضيه من نفوسهم ؛ بل خبثها قائم بها لم يفارقها ؛ بحيث لو ردوا لعادوا كفاراً كما كانوا ؛ وهذا يدل على أن دوام تعذيبهم يقضى به العقل ، كما جاء به السمع

قال أصحاب الفناء :

(١) أما دلالة القرآن على بقاء النار وعدم فنائها ، فأين فى القرآن دليل واحد يدل على ذلك؟ نعم الذى دل عليه القرآن أن الكفار خالدون فى النار أبداً ، وأنهم غير خارجين منها ، وأنه لا يفتر عنهم من عذابها ، وأنهم لا يموتون فيها ، وأن عذابهم فيها مقيم ، وأنه غرام أى لازم لهم . وهذا كله مما لا نزاع فيه بين الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، وليس هذا مورد النزاع ، وإنما النزاع فى أمر آخر وهو أنه : هل النار أبدية أو مما كتب عليه الفناء ؟ وأما كون الكفار لا يخرجون منها ولا يفتر عنهم من عذابها ولا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ، فلم يختلف فى ذلك الصحابة ولا التابعون ولا أهل السنة .

وهذه النصوص وأمثالها تقتضى خلودهم فى دار العذاب ما دامت باقية ولا يخرجون منها مع بقائها البتة ، كما يخرج أهل التوحيد منها مع بقائها ، فالفرق كالفرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله ، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه .

(٢) وأما مجيء السنة المستفيضة بخروج أهل الكبائر من النار دون أهل الشرك فهى حق لا شك فيه ، وهى إنما تدل على خروج الموحدين منها وهى دار عذاب لم تفن ، ويبقى المشركون فيها ما دامت باقية ، والنصوص دلت على هذا وعلى هذا

(٣) وأما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقفنا على ذلك ضرورة فلا ريب أنه من المعلوم من دينه بالضرورة أن الكفار باقون فيها ما دامت باقية ، هذا معلوم من دينه بالضرورة ، وأما كونها أبدية لا انتهاء لها ولا تفنى كالجنة ، فأين فى القرآن والسنة دليل واحد يدل على ذلك .

(٤) وأما أن فى عقائد أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ، فلا ريب أن القول بفنائهما قول أهل البدع من الجهمية والمعتزلة ، وهذا القول لم يقله أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة المسلمين ؛ وأما فناء النار وحدها فقد قال به بعض الصحابة ؛ كأبى هريرة وعمر وغيرهما وتفريقهم بين الجنة والنار فكيف يكون القول به من أقوال أهل البدع ؛ مع أنه لا يعرف عن أحد من أهل البدع التفريق بين الدارين ؟ فقولكم إنه من أقوال أهـــل البدع كلام من لا خبرة له بمقالات بنى آدم واختلافهم

ونحن نذكر الفرق بين دوام الجنة والنار شرعاً وعقلا ، وذلك يظهر من وجوه

أحدها : أن الله سبحانه وتعالى أخبر ببقاء نعيم أهل الجنة ودوامه ، وأنه لا نفاد له ولا انقطاع ؛ وأنه غير مجذوذ . وأما النار فلم يخبر عنها بأكثر من خلود أهلها فيها وعدم خروجهم منها ، وأنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، وأنها مؤصدة عليهم ، وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وأن عذابها لازم لهم وأنه مقيم عليهم لا يفتر عنهم . والفرق بين الخبرين ظاهر .

الوجه الثانى : أن النار قد أخبر الله سبحانه وتعالى فى ثلاث آيات عنها بما يدل على عدم أبديتها .

الأولى : قوله سبحانه وتعالى (قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم) .

الثانية : قوله (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد) .

الثالثة : قوله (لابثين فيها أحقاباً) ولولا الأدلة القطعية الدالة على أبدية الجنة ودوامها لكان حكم الاستثناء فى الموضعين واحداً : كيف وفى الآيتين من السياق ما يفرق بين الاستثنائين فإنه قال فى أهل النار (إن ربك فعال لما يريد) فعلمنا أنه سبحانه وتعالى يريد أن يفعل فعلا لم يخبرنا به ، وقال فى أهل الجنة (عطاء غير مجذوذ) فعلمنا أن هذا العطاء والنعيم غير مقطوع عنهم أبداً فالعذاب مؤقت معلق والنعيم ليس بمؤقت ولا معلق .

الوجه الثالث : أنه قد ثبت أن الجنه يدخلها من لم يعمل خيراً قط من المعذبين الذين يخرجهم الله من النار ، وأما النار فلم يدخلها من لم يعمل سوءاً قط ، ولا يعذب إلا من عصاه .

الوجه الرابع : أنه قد ثبت أن الله سبحانه وتعالى ينشىء للجنه خلقاً آخر يوم القيامه يسكنهم إياها ، ولا يفعل ذلك بالنار ؛ وأما الحديث الذى قد ورد فى صحيح البخارى من قوله « وأما النار فينشىء الله لها خلقا آخرين » فغلط وقع من بعض الرواة انقلب عليه الحديث ؛ وإنما هو ما ساقه البخارى فى الباب نفسه « وأما الجنه فينشىء الله لها خلقاً آخرين » ذكره البخارى رحمه الله مبيناً أن الحديث انقلب لفظه على من رواه بخلاف هذا وهذا . والمقصود أنه لا تقاس النار بالجنه فى التأبيد مع هذه الفروق .

يوضحه الوجه الخامس : أن الجنه من موجب رحمته ورضاه والنار من غضبه وسخطه ؛ ورحمته سبحانه تغلب غضبه وتسبقه كما جاء فى الصحيح من حديث أبى هريرة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده موضوع على العرش إن رحمتى تغلب غضبى) وإذا كان رضاه قد سبق غضبه وهو يغلبه كان التسويه بين ما هو من موجب رضـــاه وما هو من موجب غضبه ممتنعاً .

يوضحه الوجه الثامن — أن النار خلقت تخويفاً للمؤمنين وتطهيرا للخاطئين والمجرمين ، فهى طهرة من الخبث الذى اكتسبته النفس فى هذا العالم ، فإن تطهرت ههنا بالتوبه النصوح والحسنه الماحيه والمصائب المكفرة لم تحتج إلى تطهير هناك

وقيل لها مع جملة الطيبين (سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) وإن لم تتطهر فى هذه الدار ووافت الدار الأخرى بدرنها ونجاستها وخبثها أدخلت النار طهرة لها ؛ ويكون مكثها فى النار بحسب زوال ذلك الدرن والخبث والنجاسة التى لا يغسلها الماء ؛ فإذا تطهرت الطهر التام أخرجت من النار ، والله سبحانه خلق عباده حنفاء وهى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، فلو خلوا وفطرهم لما نشئوا إلا على التوحيد ولكن عرض لأكثر الفطر ما غيرها ، ولهذا كان نصيب النار أكثر من نصيب الجنة ، وكان هذا التغيير مراتب لا يحصيها إلا الله .

فأرسل الله رسله وأنزل كتبه يذكر عباده بفطرته التى فطرهم عليها ، فعرف الموفقون الذين سبقت لهم من الله الحسنى صحة ما جاءت به الرســـل ونزلت به الكتب بالفطرة الأولى ، فتوافق عندهم شرع الله ودينه الذى أرسل به رسله ، وفطرته التى فطرهم عليها ، فمنعتهم الشرعة المنزلة والفطرة المكملة أن تكتسب نفوسهم خبثاً ونجاسة ودرناً يعلق بها ولا يفارقها ، بل كلما ألمّ بهم شىء من ذلك ومسهم طائف من الشيطان أغاروا عليه بالشرعة والفطرة فأزالوا موجبه وأثره ؛ وكمل لهم الرب تعالى ذلك بأقضية يقضيها لهم مما يحبون أو يكرهون ، تمحص عنهم تلك الآثار التى شوشت الفطرة ، فجاء مقتضى الرحمة فصادف مكاناً قابلا مستعداً لما ليس فيه شىء يدافعه فقال ههنا أمرت .

وليس لله سبحانه غرض فى تعذيب عباده بغير موجب كما قال تعالى (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ، وكان الله شاكراً عليما) واستمر الأشقياء مع تغيير الفطرة ونقلها عما خلقت عليه إلى ضده حتى استحكم الفساد وتم التغيير ، فاحتاجوا فى إزالة ذلك إلى تغيير آخر وتطهير ينقلهم إلى الصحة حيث لم تنقلهم آيات الله المتلوة والمخلوقة وأقداره المحبوبة والمكروهة فى هذه الدار ؛ فأتاح لهم آيات أخر وأقضية وعقوبات فوق التى كانت فى الدنيا تستخرج ذلك الخبث والنجاسة التى لا تزول بغير النار ؛ فإذا زال موجب العذاب وسببه زال العذاب وبقى مقتضى الرحمة لا معارض له .

فإن قيل : هذا حق ولكن سبب التعذيب لا يزول إلا إذا كان السبب عارضا كمعاصى الموحدين ، أما إذا كان لازما ، كالكفر والشرك فإن أثره لا يزول .

كما لا يزول السبب ، وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى بعينه فى مواضع من كتابه : منها قوله تعالى (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) فهذا إخبار بأن نفوسهم وطبائعهم لا تقتضى غير الكفر والشرك ، وأنها غير قابلة للايمان أصلا . ومنها قوله تعالى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) .

فأخبر سبحانه أن ضلالهم وعماهم عن الهدى دائم لا يزول حتى مع معاينة الحقائق التى أخبرت بها الرسل ؛ وإذا كان العمى والضلال لا يفارقهم فإن موجبه وأثره ومقتضاه لا يفارقهم ، ومنها قوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) .

وهذا يدل على أنه ليس فيهم خير يقتضى الرحمة ، ولو كان فيهم خير لما ضيع عليهم أثره ؛ ويدل على أنهم لا خير فيهم هناك أيضاً قوله (أخرجوا من النار من كان فى قلبه أدنى مثقال ذرة من خير) فلو كان عند هؤلاء أدنى مثقال ذرة من خير لخرجوا منها مع الخارجين .

قيل : لعمر الله أن هذا لمن أقوى ما يتمسك به فى المسألة ؛ وان الأمر لكما قلتم ، وإن العذاب يدوم بدوام موجبه وسببه ، ولاريب أنهم فى الآخرة فى عمى وضلال ، كما كانت فى الدنيا والعذاب مستمر عليهم دائم ما داموا كذلك .

ولكن هل هذا الكفر والتكذيب والخبث أمر ذاتى لهم — زواله مستحيل أم هو أمر عارض طارىء على الفطرة قابل للزوال ؟ هذا حرف المسألة وليس بأيديكم ما يدل على استحالة زواله وأنه أمر ذاتى .

وقد أخبر سبحانه أنه فطر عباده على الحنيفيه ؛ وأن الشياطين اجتالتهم عنها فلم يفطرهم سبحانه على الكفر والتكذيب كما فطر الحيوان البهيم على طبيعته ؛ وإنما فطرهم على الاقرار بخالقهم ومحبته وتوحيده ، فإذا كان هذا الحق الذى فطروا عليه وخلقوا عليه قد أمكن زواله بالكفر والشرك الباطل ؛ فامكان زوال الكفر والشرك الباطل بضده من الحق أولى وأحرى ، ولا ريب أنهم لو ردوا على تلك الحال التى هم عليها لعادوا لما نهوا عنه ، ولكن من أين لكم أن تلك الحال لا تزول ولا تتبدل بنشأة أخرى ينشئهم فيها تبارك وتعالى إذا أخذت النار مأخذها منهم وحصلت الحكمة المطلوبة من عذابهم ؛ فإن العذاب لم يكن سدى ؛ وإنما كان

لحكمة مطلوبة ، فإذا حصلت تلك الحكمة لم يبق فى التعذيب أمر يُطلب ولا غرض يقصد ، والله سبحانه ليس يشتفى بعذاب عباده كما يشتفى المظلوم من ظالمه ، وهو لا يعذب عبده لهذا الغرض ، وإنما يعذبه طهرة له ورحمة به ، فعذابه مصلحة له وإن تألم به غاية الألم ، كما أن عذابه بالحدود فى الدنيا مصلحة لأربابها وقد سمى الله سبحانه الحد عذاباً ، وقد اقتضت حكمته سبحانه أن جعل لكل داء دواء يناسبه ، ودواء الداء العضال يكون من أشق الأدوية ، والطبيب الشفيق يكوى المريض بالنار كياً بعد كيّ ليخرج منه المادة الردية الطارئة على الطبيعة المستقيمة ، وإن رأى قطع العضو أصلح للعليل قطعه وأذاقه أشد الألم ، فهذا قضاء الرب وقدره فى إزالة مادة غريبة طرأت على الطبيعة المستقيمة بغير اختيار العبد ، فكيف إذا طرأ على الفطرة السليمة مواد فاسدة باختيار العبد وإرادته .

وإذا تأمل اللبيب شرع الرب تعالى وقدره فى الدنيا وثوابه وعقابه فى الآخرة وجد ذلك فى غاية التناسب والتوافق وارتباط ذلك بعضه ببعض ، فإن مصدر الجميع عن علم تام وحكمة بالغة ، ورحمة سابغة ، وهو سبحانه الملك الحق المبين وملكه ملك رحمة وإحسان وعدل .

الوجه التاسع : إن عقوبته للعبد ليست لحاجته إلى عقوبته ، ولا لمنفعة تعود إليه ، ولا لدفع مضرة يزول عنه بالعقوبة ، بل يتعالى عن ذلك ويتنزه ، كما يتعالى عن سائر العيوب والنقائص ولا هى عبث محض خال عن الحكمة والغاية الحميدة ، فإنه أيضاً يتنزه عن ذلك ويتعالى عنه ، فاما أن يكون من تمام نعيم أوليائه وأحبابه ؛ وإما أن يكون من مصلحة الأشقياء ومداواتهم ، أو لهذا ولهذا ؛ وعلى التقادير الثلاث ، فالتعذيب أمر مقصود لغيره ، قصد الوسائل لا قصد الغايات ، والمراد من الوسيلة إذا حصل على الوجه المطلوب زال حكمها ، ونعيم أوليائه ليس متوقفاً فى أصله ولا فى كماله على استمرار عذاب أعدائه ودوامه ، ومصلحة الأشقياء ليست فى الدوام والاستمرار ؛ وإن كان فى أصل التعذيب مصلحة لهم .

الوجه العاشر : إن رضاء الرب تبارك وتعالى ورحمته صفتان ذاتيتان له ، فلا منتهى لرضاه ، بل كما قال أعلم الخلق به (سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء

نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته) فإذا كانت رحمته غلبت غضبه ، فإن رضى نفسه أعلى وأعظم . فإن رضوانه أكبر من الجنات ونعيمها وكل ما فيها ، وقد أخبر عن أهل الجنة أنه يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً ؛ وأما غضبه تبارك وتعالى وسخطه فليس من صفاته الذاتية التى يستحيل انفكاكه عنها بحيث لم يزل ولا يزال غضبان .

فهو سبحانه له الكمال المطلق من جميع الوجوه الذى يتنزه عن تقدير خلافه ، ومنه أنه يرضى ويغضب ، ويثيب ويعاقب ، ويعطى ويمنع ، ويعز ويذل ، وينتقم ويعفو ؛ بل هذا موجب ملكه الحق . وهو حقيقة الملك المقرون بالحكمة والرحمة والحمد . فإذا زال غضبه سبحانه وتبدل برضاه زالت عقوبته وتبدلت برحمته فانقلبت العقوبة رحمة . بل لم تزل رحمة وإن تنوعت صفتها وصورتها . كما كان عقوبة العصاة رحمة وإخراجهم من النار رحمة . فتقلبوا فى رحمته فى الدنيا وتقلبوا فيها فى الاخرة . لكن تلك الرحمة يحبونها وتوافق طبائعهم وهذه رحمة يكرهونها وتشق عليهم . كرحمة الطبيب الذى يبضع لحم المريض ويلقى عليه المكاوى ليستخرج منه المواد الردية الفاسدة .

فإن قيل — هذا اعتبار غير صحيح . فإن الطبيب يفعل ذلك بالعليل وهو يحبه وهو راض عنه . ولم ينشأ فعله به عن غضبه عليه وهذا لا يسمى عقوبة . وأما عذاب هؤلاء فإنه إنما حصل بغضبه سبحانه عليهم . وهو عقوبة محضة .

(قيل) هذا حق ولكن لا ينافى كونه رحمة بهم وإن كان عقوبة لهم . وهذا كإقامة الحدود عليهم فى الدنيا فإنه عقوبة ورحمة وتخفيف وطهرة . فالحدود طهرة لأهلها وعقوبة ؛ وهم لما أغضبوا الله تعالى وقابلوه بما لا يليق أن يقابل به وعاملوه أقبح المعاملة وكذبوه وكذبوا رسله ، وجعلوا أقل أهله وأخبثهم وأمقتهم له نداً له وآلهة معه . وآثروا رضاهم على رضاه . وطاعتهم على طاعته . وهو ولى الانعام عليهم . وهو خالقهم ورازقهم ومولاهم الحق . اشتد مقته لهم وغضبه عليهم . وذلك يوجب كمال أسمائه وصفاته التى يستحيل عليه تقدير خلافها . ويستحيل عليه تخلف آثارها ومقتضاها عنها . بل ذلك تعطيل لأحكامها . كما أن نفيها عنه تعطيل لحقائقها . وكلا التعطيلين محال عليه سبحانه .

فالمعطلون نوعان : أحدهما عطل صفاته ؛ والثانى عطل أحكامه وموجباتها ، وكان هذا العذاب عقوبة لهم من هذا الوجه ودواء لهم من جهة الرحمة السابقة للغضب ؛ فاجتمع فيه الأمران ؛ فإذا زال الغضب بزوال سببه ، وزالت المادة الفاسدة بتغيير الطبيعة المقتضية لها فى الجحيم بمرور الأحقاب عليها ؛ وحصلت الحكمة التى أوجبت العقوبة . عملت الرحمة عملها وطلبت أثرها من غير معارض

(يوضحه الوجه الحادى عشر) وهو أن العفو أحب إليه سبحانه من الانتقام ، والرحمة أحب إليه من العقوبة ، والرضا أحب إليه من الغضب ، والفضل أحب إليه من العدل ، ولهذا ظهرت آثار هذه المحبة فى شرعه وقدره .

الوجه الثانى عشر : إن النعيم والثواب من مقتضى رحمته ومغفرته وبره وكرمه ، ولذلك يضيف ذلك إلى نفسه ، وأما العذاب والعقوبة فإنما هو من مخلوقاته ، ولذلك لا يسمى بالمعاقب والمعذب بل يفرق بينهما فيجعل ذلك من أوصافه ، وهذا من مفعولاته حتى فى الآية الواحدة كقوله تعالى (نبىء عبادى انى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم) وقال تعالى (اعلموا ان الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم) وقال تعالى (إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم) ومثلها فى آخر الأنعام .

فما كان من مقتضى أسمائه وصفاته فإنه يدوم بدوامها ، ولا سيما إذا كان محبوباً له وهو غاية مطلوبة فى نفسها .

* * *

وأما الشر الذى هو العذاب فلا يدخل فى أسمائه وصفاته ، وإن دخل فى مفعولاته لحكمة إذا حصلت زال وفنى ، بخلاف الخير فإنه سبحانه دائم المعروف لا ينقطع معروفه أبداً ، وهو قديم الاحسان أبدى الاحسان ، فلم يزل ولا يزال محسناً على الدوام . وليس من موجب أسمائه وصفاته أنه لا يزال معاقبا على الدوام غضبان على الدوام ، منتقما على الدوام ، فتأمل هذا الوجه تأمل فقيه فى باب أسماء الله وصفاته يفتح لك باباً من أبواب معرفته ومحبته .

الوجه الرابع عشر : أنه سبحانه قد أخبر أن رحمته وسعت كل شىء فليس

شيء من الأشياء إلا وفيه رحمته ، ولا ينافى هذا أن يرحم العبد بما يشق عليه ويؤلمه وتشتد كراهته له ، فإن ذلك من رحمته أيضاً .

(وفى أثر إلهى) يقول الله تعالى « أهل ذكرى أهل مجالستى ، وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل شكرى أهل زيادتى ، وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب ، لأطهرهم من المعايب » .

فالبلاء والعقوبة أدوية قدرت لإزالة أدواء لا تزول إلا بها ، والنار هى الدواء الأكبر ، فمن تداوى فى الدنيا أغناه ذلك عن الدواء فى الآخرة ، وإلا فلا بد له من الدواء بحسب دائه . ومن عرف الرب تبارك وتعالى بصفات جلاله ونعوت كماله ، من حكمته ورحمته وبره وإحسانه ، وغناه وجوده ، ونحبيه إلى عباده وإرادته الانعام عليهم وسبق رحمته لهم لم يبادر إلى إنكار ذلك إن لم يبادر إلى قبوله .

يوضحه (الوجه الخامس عشر) ان أفعاله سبحانه لا تخرج عن الحكمة والرحمة والمصلحة والعدل ، فلا يفعل عبثاً ولا جوراً ولا باطلا بل هو المنزه عن ذلك ، كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص .

وإذا ثبت ذلك فتعذيبهم إن كان رحمة بهم حتى يزول ذلك الخبث وتكمل الطهارة فظاهر ، وإن كان لحكمة فإذا حصلت تلك الحكمة المطلوبة زال العذاب ، وليس فى الحكمة دوام العذاب أبد الابدين بحيث يكون دائما بدوام الرب تبارك وتعالى ، وإن كان لمصلحة فإن كان يرجع إليهم فليست مصلحتهم فى بقائهم فى العذاب كذلك ، وإن كانت المصلحة تعود إلى أوليائه ، فإن ذلك أكمل فى نعيمهم ، فهذا لا يقتضى تأبيد العذاب ، وليس نعيم أوليائه وكماله موقوفا على بقاء آبائهم وأبنائهم وأزواجهم فى العذاب السرمد . فإن قلتم إن ذلك هو موجب الرحمة والحكمة والمصلحة قلتم ما لا يعقل ، وإن قلتم إن ذلك عائد إلى محض المشيئة ، ولا تطلب له حكمة ولا غاية فجوابه من وجهين :

(أحدهما) أن ذلك محال على أحكم الحاكمين وأعلم العالمين أن تكون أفعاله معطلة عن الحكم والمصالح والغايات المحمودة والقرآن والسنة وأدلة العقول . والفطر والايات المشهودة شاهدة ببطلان ذلك .

(والثانى) أنه لو كان الأمر كذلك لكان ابقاؤهم فى العذاب وانقطاعه عنهم بالنسبة إلى مشيئته سواء ولم يكن فى انقضائه ما ينافى كماله . وهو سبحانه لم يخبرنا بأبدية العذاب . وأنه لا نهاية له . وغاية الأمر على هذا التقدير أن يكون من الجائزات الممكنات الموقوف حكمها على خبر الصـــادق . فإن سلكت طريق التعليل بالحكمة والرحمة والمصلحة لم يقتض الدوام . وإن سلكت طريق المشيئة المحضة التى لا تعلل لم تقتضه أيضا . وإن وقف الأمر على السمع فليس فيه ما يقتضيه .

الوجه السادس عشر : أن رحمته سبحانه سبقت غضبه فى المعذبين فإنه أنشأهم برحمته ورباهم برحمته ورزقهم وعافاهم برحمته وأرسل إليهم الرسل برحمته .

وأسباب النقمة والعذاب متأخرة عن أسباب الرحمة طارئة عليها فرحمته سبقت غضبه فيهم وخلقهم على خلقة تكون رحمته إليهم أقرب من غضبه وعقوبته ، ولهذا ترى أطفال الكفار قد ألقى عليهم رحمته فمن رآهم رحمهم ، ولهذا نهى عن قتلهم ، فرحمته سبقت غضبه فيهم فكانت هى السابقة إليهم ، ففى كل حال هم فى رحمته فى حال معافاتهم وابتلائهم ، واذا كانت الرحمة هى السابقة فيهم لم يبطل أثرها بالكلية وان عارضها أثر الغضب والسخط فذلك لسبب منهم ، وأما أثر الرحمة فسببه منه سبحانه ، فما منه يقتضى رحمتهم ؛ وما منهم يقتضى عقوبتهم والذى منه سابق وغالب ، واذا كانت رحمته تغلب غضبه فلأن يغلب أثر الرحمة أثر الغضب أولى وأحرى .

الوجه السابع عشر : أنه سبحانه يخبر عن العذاب أنه عذاب يوم عقيم وعذاب يوم عظيم . وعذاب يوم أليم ولا يخبر عن النعيم أنه (نعيم يوم) ولا فى موضع واحد . وقد ثبت فى الصحيح تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة والمعذبون متفاوتون فى مدة لبثهم فى العذاب بحسب جرائمهم . والله سبحانه جعل العذاب على ما كان من الدنيا وأسبابها وما أريد به الدنيا ولم يرد به الله فالعذاب على ذلك وأما ما كان للآخرة وأريد به وجه الله فلا عذاب عليه ؛ والدنيا قد جعل لها أجل تنتهى إليه فما انتقل منها إلى تلك الدار مما ليس لله فهو المعذب به .

وأما ما أريد به وجه الله والدار الآخرة فقد أريد به مالا يفنى ولا يزول فيدوم بدوام المراد به ، فإن الغاية المطلوبة إذا كانت دائمة لا تزول لم يزل ما تعلق بها بخلاف الغاية المضمحلة الفانية فما أريد به غير الله يضمحل ويزول بزوال مراده ومطلوبه ، وما أريد به وجه الله يبقى ببقاء المطلوب المراد ، فإذا اضمحلت الدنيا وانقطعت أسبابها وانتقل ما كان فيها لغير الله من الأعمال والذوات وانقلب عذاباً وآلاماً لم يكن له متعلق يدوم بدوامه بخلاف النعيم .

الوجه الثانى والعشرون : انه سبحانه قد أوجب الخلود على معاصى من الكبائر وقيده بالتأبيد ولم ينف ذلك انقطاعه وانتهاءه ، فمنها قوله تعالى (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما) ومنها قول النبى صلى الله عليه وسلم « من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » وهو حديث صحيح . وكذلك قوله فى الحديث الاخر فى قاتل نفسه « فيقول الله تبارك وتعالى : بادرنى عبدى بنفسه حرمت عليه الجنة » وأبلغ من هذا قوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها)

فهذا وعيد مقيد بالخلود والتأبيد ، مع انقطاعه قطعاً بسبب من العبد وهو التوحيد . فكذلك الوعيد العام لأهل النار لا يمتنع انقطاعه بسبب ممن كتب على نفسه الرحمة وغلبت رحمته غضبه ، فلو يعلم الكافر بكل ما عنده من الرحمة لما يئس من رحمته . كما فى صحيح البخارى عنه ﷺ « خلق الله الرحمة يوم خلقها مائة رحمة — وقال فى آخره — فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المسلم بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار »

الوجه الثالث والعشرون : انه لو جاء الخبر منه سبحانه صريحا بأن عذاب النار لا انتهاء له وأنه أبدى لا انقطاع له لكان ذلك وعيداً منه سبحانه : والله تعالى لا يخلف وعده .

وأما الوعيد فمذهب أهل السنة أن إخلافه كرم وعفو وتجاوز يمدح الرب تبارك وتعالى به ويثنى عليه به ، فإنه حق له إن شـــاء تركه وإن شاء استوفاه ، والكريم لا يستوفى حقه ؛ فكيف بأكرم الأكرمين ، وقد صرح سبحانه فى كتابه فى غير موضع واحد بأنه لا يخلف وعده .

وقد روى أبو يعلى الموصلى **حدثنا** هدبة بن خالد حدثنا سهيل بن أبى حزم **حدثنا** ثابت البنانى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من وعده الله على عمل ثواباً فهو منجزه ، ومن أوعده على عمل عقاباً فهو فيه بالخيـار »

قال أبو الشيخ : وقال يحيى بن معاذ : الوعد والوعيد حق ، فالوعد حق العباد على الله ، ضمن لهم إذا فعلوا كذا أن يعطيهم كذا ، ومن أولى بالوفاء من الله ؟ والوعيد حقه على العبـاد . قال لا تفعلوا كذا فأعذبكم ففعلوا ، فإن شاء عفا وإن شاء أخذ لأنه حقه ، وأولاهما بربنا تبارك وتعالى العفو والكرم إنه غفور رحيم . ومما يدل على ذلك ويؤيده خبر كعب بن زهير حين أوعده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

نبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول

فإذا كان هذا فى وعيد مطلق فكيف بوعيد مقرون باستثناء معقب بقوله (إن ربك فعال لما يريد) وهذا إخبار منه أنه يفعل ما يريد عقيب قوله (إلا ما شاء ربك) فهو عائد إليه ولا بد

وهذا التعقيب نظير قوله فى الأنعام (خالدين فيها إلا ما شـاء الله إن ربك حكيم عليم)

فأخبر أن عذابهم فى جميع الأوقات ورفعه عنهم فى وقت يشاؤه صادر عن كمال علمه وحكمته لا عن مشيئة مجردة عن الحكمة والمصلحة والرحمة والعدل .

الوجه الرابع والعشرون : إن جانب الرحمة أغلب فى هذه الدار الفانية من

جانب العقوبة . ولولا ذلك لما عمرت ولا قام لها وجود كما قال تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة) فلولا سعة رحمته ومغفرته وعفوه لما قام العالم ؛ ومع هذا فالذى أظهره من الرحمة فى هذه الدار وأنزله بين الخلائق جزء من مئة جزء من الرحمة . فإذا كان جانب الرحمة قد غلب فى هذه الدار ونالت البر والفاجر والمؤمن والكافر ، مع قيام مقتضى العقوبة به ومباشرته له ، وسعيه فى مساخطة ربه ، فكيف لا يغلب جانب الرحمة فى دار تكون الرحمة فيها مضاعفة على ما فى هذه الدار تسعاً وتسعين ضعفا ؛ وقد أخذ العذاب من الكفار مأخذه ، وانكسرت تلك النفوس . وأنهكها العذاب ، وأذاب منها خبثا وشراً لم يكن يحول بينها وبين رحمته لها فى الدنيا ، بل كان يرحمها مع قيام مقتضى العقوبة بها ، فكيف إذا زال مقتضى العقوبة ، وقوى جانب الرحمة أضعاف أضعاف الرحمة فى هذه الدنيا ، واضمحل الشر الذى فيها ؟

هذا ما قاله ابن القيم باختصار ، وهو يرجح فناء النار . وهو فهم لا يخالف لغة القرآن ، فقد عبروا بالأبد عما يبقى مدة طويلة كما صرح به الراغب فى مفرداته . وناهيك بتدقيقه فى تحديد معانى الألفاظ والله أعلم

المشكلة الثالثة عشرة

قصة السامرى

قال تعالى (قال فما خطبك يا سامرى ؟ قال بصُرتُ بما لم يبصروا به فقبضت قبضةً من أثر الرسول فنبذتها ، وكذلك سولت لى نفسى . قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تُخلَفه ، وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً . إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما)

السامرى كان من قوم يعبدون البقر ، فدخل فى دين موسى صلى الله عليه وسلم فى الظاهر ، وفى قلبه حنين لعبادة البقر ؛ فلما سنحت له الفرصة وذهب موسى لميعاد ربه — زين لمن معه أن يلقوا بما معهم من حلى الذهب فى نار أوقدها ، وصنع منها عجلا جسداً لا روح فيه ، وزعم أن هذا هو إلهكم وإله موسى ؛ وأن موسى قد نسيه هنا .

فلما رجع موسى غضبان أسفاً — بعد إعلام الله له بما وقع — قال ما خطبك يا سامرى ؟ أى ما شأنك وما الذى دهاك حتى فعلت ذلك الأمر الجلل ؟ قال بصُرت بما لم يبصروا به ؛ أى إنى عرفت ما لم يعرفوا ، وعرفت أن ما أنتم عليه ليس بالحق .

(فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها) أى وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول ، أى شيئاً من سنتك ودينك فطرحته وأعرضت عنه .

ولما سمع موسى من السامرى ما سمع ذكر له ما سينزل به فى الدنيا والآخرة من العقوبات وبين حال إلهه (قال فاذهب فإن لك فى الحياة

أن تقول لا مساس) أى قال له اذهب فأنت طريد من الناس فلا يخالطك أحد ولا تخالط أحداً ، فخاف وهرب وجعل يهيم فى البرية حتى صار لبعده عن الناس كمن يقول لا مساس .

. . .

هذا ما كتبه فضيلة الشيخ أحمد مصطفى المراغى — أستاذ الشريعة الاسلامية بدار العلوم سابقا . وهو المتبادر من الآيات بلا تكلف . أما هذه الأساطير التى ملئت بها كتب التفسير من أن السامرى رأى جبريل على فرس فأخذ قبضة من التراب الذى مر عليه ... الخ ، فهى إسرائيليات ما كان يليق بالمسلمين أن يشتغلوا بها وقد آن لهم أن يطهروا كتبهم وعقولهم من هذه الخرافات ؛ وأن يفهموا كلام الله تعالى بمثل هذا الأسلوب الذى سلكه الأستاذ دون حشو أو تعقيد .

المشكلة الرابعة عشرة

إبليس : كيف أمر بالسجود لآدم وهو ليس من الملائكة

قال تعالى فى سورة البقرة (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) فالأمر للملائكة ؛ وإبليس ليس منهم كما قال تعالى إنه كان من الجن ، فكيف توجه الخطاب إليه ؟

إن الأمر بالسجود لم يكن للملائكة فقط ، بل كان لجميع المخلوقات ومنها الجن . وإنما خص الملائكة بالذكر اكتفاء بالأشرف والأعلى ، كما تثنى على حفل فتقول : لقد حضره الوزراء والكبراء ، وهذا لا يمنع من حضور غيرهم .

وتوجيه الاية هذا التوجيه متعين ، وحذف المعلوم معهود فى لسان العرب . ومن ذلك قوله تعالى (سرابيل تقيكم الحر) أى والبرد . وقوله تعالى (وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) ثم حذف المعلوم من الإذن له وذهابه ودخوله على يوسف وقال (يوسف أيها الصديق أفتنا ...)

أما تلك الأقاويل المشهورة من أن إبليس كان طاووس الملائكة فهو كلام لا يستحق أن نرد عليه .

المشكلة الخامسة عشرة

كفارة اليمين

قال تعالى (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة) فكيف سوّى بين إطعام عشرة مساكين وبين تحرير رقبة مع الفرق الشاسع بين قيمة هذا الاطعام وهذا التحرير فى التكاليف .

جاء الإسلام والعالم فى فوضى خطيرة : يعتدى القوى على الضعيف ويأكله ويستغله ، فإذا قامت غارة بين دولة وأخرى ، أو بين قبيلة وأخرى ، وانتهى الأمر بانتصار القوى على الضعيف ، اتخذ القوى رجال عدوه ونساءهم عبيداً له يستعملهم فى شئونه كما يشاء ، ولا يملك العبد مع سيده عقداً ولا حلا .

كان الأمر كذلك ؛ ولكن الاسلام جاء ومن أهدافه تحرير الأرقاء ، ومحاربة الاستعباد ، وكان من سياسته فى كثير من التشريعات أن يسير على سنة التدرج ، حتى يضمن التنفيذ مع القبول والرضا ، كما فعل فى تحريم الخمر .

فلو انفرد الإسلام بتحريم الرق أصلا كان الغنم للعدو والغرم عليه هو ، فسار على النظام الدولى فى جواز الاسترقاق . ولكنه فتح أبوابا للعتق تلمس لها أوهى الأسباب .

اشكالان فى الزكاة

ذكر الاسلام جميع الأنواع التى تجب فيها الزكاة فلم يذكر فيها البيوت . فمثلا رجل يملك أكثر من عشرة جنيهات ومضى عليها عام أوجب فيها الزكاة . ورجل يملك عمارة قيمتها آلاف الجنيهات يمر عليها عشرات السنين لا يوجب عليه فيها زكاة ، فكيف ذلك ؟

نعم ، هذا عين الحكمة . ذلك أن الاسلام يحارب حبس الأموال فى الصناديق والخزائن لما فى ذلك من تعطيلها عن وظيفتها وعدم انتفاع أحد بها ، فوجبت الزكاة لينتفع بها الفقراء . أما من بنى عمارة فقد انتفع بها الكثير ؛ فهذا بناء وهذا نجار وهذا حداد . وهذا . وهذا . ولا يفوتك أيضاً ما يلزم هذه العمارة من وسائل الصيانة والترميم بين الحين والحين .

٢ — طفل مات والده وترك له ثروة نقدية لينتفع بها إذا بلغ رشده . فإذا خرجت زكاة هذا المال كل عام لم يجد شيئاً ينتفع به عند البلوغ .

كلا ان مال الطفل مهما كثر لا زكاة فيه لأنه غير مكلف قبل البلوغ بصلاة ولا زكاة .

ومن أراد تفصيل ذلك بالأدلة فليراجع كتاب الأموال ، أو المحلى أو غيرهما

اشكالات قرآنيه لعلامة القصيم

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

١ — (الأمة) جاء فى القرآن لعدة معانى . جاء بمعنى الامام الجامع لخصال الخير . مثل قوله (إن إبراهيم كان أمة) وجاء بمعنى الطائفة (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) وهذا المعنى كثير ، وبمعنى الملة والدين (وأن هـــذه أمتكم أمة واحدة) وبمعنى المدة الطويلة (ادّكر بعد أمة) .

٢ — (السلطان) أكثر استعماله فى القرآن بمعنى الحجة ؛ مثل قوله (إن عندكم من سلطان . . فاتوا بسلطان مبين) ويأتى بمعنى الملك مثل قوله (هلك عنى سلطانيه) وبمعنى التسلط والسيطرة كقوله (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه) .

٣ — (اللسان) ورد فى القرآن بمعنى الجارحة (لا تحرك به لسانك) وبمعنى اللغة (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) وبمعنى الثناء الحسن (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) .

٤ — (استوى) وردت فى القرآن على ثلاثة أوجه :

تارة تعدّى بعلى فتدل على العلو والارتفاع ، مثل (ثم استوى على العرش لتستووا على ظهوره) .

وتعدى بإلى فتدل على القصد مثل (ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات)

وتأتى بلا تعدية بحرف فتدل على الكمال ، ومنه قوله (ولمـــا بلغ أشده واستوى) أى كمل فى عقله وأحواله كلها .

٥ — (التأويل) أكثر وروده فى القرآن بمعنى عاقبة الشىء وما يؤول إليه ووقت وقوعه ؛ كقوله (هل ينظرون إلا تأويله ، يوم يأتى تأويله يقول الذين

نسوه من قبل) أى وقوع المخبر به من العذاب (هذا تأويل رؤياى من قبل) أى هذا ما آلت إليه وهذا وقوعها . وقد يأتى بمعنى التفسير وهو قليل . ومنه على أحد التفسيرين (وما يعلم تأويله إلا الله) أى تفسيره . وعلى القول الآخر يكون من المعنى الأول . أى وما يعلم حقيقة المخبر عنه إلا الله وحده . فعلى هذا المعنى يتعين الوقوف على « الله » ، وعلى المعنى الأول الذى بمعنى التفسير يعطف عليه أولو العلم أى ما يعلم تفسير المتشابه الذى يتشابه فهمه على أذهان أكثر الناس إلا الله وإلا أهل العلم ؛ فإنهم يعلمون تأويله بهذا المعنى .

٦ — (الغافل) ورد فى القرآن بمعنى الجاهل كقوله (لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) وبمعنى النسيان لذكر الله ونسيان طاعته كقوله (واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والاصال ولا تكن من الغافلين)

٧ — إخبار الله أنه مع عباده يرد فى القرآن على معنيين :

المعية العامة كقوله (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم . . إلى . . إلا هو معهم) أى هو معهم بعلمه وإحاطته .

المعية الخاصة وهى أكثر وروداً فى القرآن ، وعلامتها أن يقرنها الله بالاتصاف بالأوصاف التى يحبها ، والأعمال التى يرتضيها ؛ كقوله « ان الله مع المتقين . مع المحسنين » وهذه المعية تقتضى العناية من الله والنصر والتأييد والتسديد بحسب قيام العبد بذلك الوصف الذى رتبت عليه المعية .

ونظير هذا التقسيم وصف العباد بأنهم عبيد لله يرد فى القرآن على نوعين : نوع عام كقوله (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) أى معبداً مملوكا لله .

والنوع الثانى العبودية الخاصة ، وهى تقتضى أن العبد بمعنى العابد المتعبد لربه القائم بعبوديته كقوله (وعباد الرحمن . تبارك الذى نزل الفرقان على عبده) فبحسب قيام العبد بعبودية ربه تحصل له كفاية الله .

ونظير هذا القنوت يرد فى القرآن على قسمين : قنوت عام كقوله « وله من فى السموات والأرض كل له قانتون » أى الكل عبيد خاضعون لربوبيته وتدبيره النوع الثانى وهو الأكثر فى القرآن القنوت الخاص ، وهو دوام الطاعة لله

على وجه الخشوع كقوله (وقوموا لله قانتين . يا مريم اقنتى لربك واسجدى . . . والقانتين والقانتات)

٨ — ورد فى القرآن أن الناس فى القيامة لا يتساءلون ولا يتكلمون ، وورد فيه احتجاجهم وتكلمهم وخطاب بعضهم لبعض .

قال أهل التفسير : إن القيامة لها أحوال ومقامات ؛ فى بعض الأحوال والمقامات يتكلمون ، وفى بعضها لا يتكلمون

٩ — أثبت القرآن الأنساب بين الناس يوم القيامة فى مواضع ونفاها فى مواضع ؛ فالمواضع المنفية المراد بها أن الأنساب لا تنفع ، كما أن جميع الأسباب لا تنفع يوم القيامة إلا سبب واحد ، وهو الإيمان والعمل الصالح . وأما المواضع المثبتة فهو المطابق للحقيقة ، ويذكر فى كل مقام بحسبه .

فى مقامات الفضل والثواب يذكر الله فضله على الجميع بإلحاق الناقص من المؤمنين بالكامل من غير نقص لدرجة الكامل كقوله (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء) أى ما نقصناهم . و « جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم)

وفى مقامات العدل والعقوبة يذكر الأنساب وأنها لا تنفع ؛ وأن الأمر أعظم من أن يلتفت المرء إلى أقرب الناس إليه ، كقوله (يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه)

ونظير هذا الاخبار عن المجرمين أنهم يسئلون عن أعمالهم ، وذلك على وجه إظهار العدل ، والتوبيخ والتقريع لهم والفضيحة . وفى موضع يقول (فيومئذ لا يُسئل عن ذنبه إنس ولا جان) أى لا يحتاج فى علم ذلك وجزائه عليه إلى سؤاله سؤال استعلام ، لأنها مسطرة عليهم ، قد حفظت بالشهود من الملائكة والجوارح

١٠ — قد أخبر الله فى عدة آيات بهدايته الكفار على اختلاف مللهم ، وتوبته على كل مجرم . وأخبر فى آيات أخر (إنه لا يهدى القوم الظالمين . لا يهدى القوم الفاسقين) فما الجمع بينهما ؟

فيقال قوله تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) هى الفاصلة بين من هداهم الله ومن لم يهدهم ، فمن حقت عليهم كلمة العذاب لعنادهم ولعلم الله أنهم لا يصلحون للهداية ؛ بحيث صار الظلم والفسق وصفاً لهم ملازماً غير قابل للزوال ، ويعلم ذلك بظاهر أحوالهم وعنادهم ومكابرتهم للحقائق فهؤلاء يطبع الله على قلوبهم فلا يدخلها خير أبداً ؛ والجرم جرمهم فإنهم رأوا سبيل الرشد فزهدوا فيه ، ورأوا سبيل الغى فرغبوا فيه

١١ - الفرح ورد فى القرآن محموداً مأموراً به فى قوله (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) فهذا فرح بالعلم والعمل بالقرآن والاسلام

وورد منهياً عنه مذموماً ، مثل الفرح بالباطل والدنيا المشغلة عن الدين فى مثل قوله تعالى (إنه لفرح فخور) وقوله عن قارون (قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) فصار الفرح تبعا لما تعلق به : إن تعلق بالخير وثمراته فهو محمود وإلا فهو مذموم .

١٢ — ورد فى القرآن عدة آيات فيها ذكر الخلود فى النار على ذنوب وكبائر ليست بكفر كقوله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما) (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فما الجمع بينها وبين النصوص المتواترة من الكتاب والسنة أنه لايخلد فى النار إلا الكفار ، وأن جميع المؤمنين مهما عملوا من المعاصى التى دون الكفر فإنهم لا بد أن يخرجوا منها ؟

هذه الآيات قد اتفق السلف على تأويلها وردّها الى هذا الأصل المجمع عليه بين سلف الأمة ، وأحسن ما يقال فيها ان ذكر الخلود على بعض الذنوب التى دون الشرك والكفر أنها من باب ذكر السبب وأنها سبب للخلود فى النار لشناعتها وأنها بذاتها توجب الخلود إذا لم يمنع من الخلود مانع ، ومعلوم بالضرورة من دين الاسلام أن الايمان مانع من الخلود ، فتنزل هذه النصوص على الأصل المشهور .

١٢ — ورد فى القرآن آيات فيها مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها ، وورد أيضا آيات فيها مضاعفة أكثر من ذلك فما الجمع ؟

أما مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها فلا بد منها فى كل عمل صالح كما قال تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وأما مضاعفة العمل أكثر من ذلك فله أسباب : إما متعلقه بنفس العامل أو بالعمل أو نتائجه أو بزمانه أو مكانه .

فمن أعظم أسباب مضاعفة العمل إذا حقق العبد فى عمله الاخلاص للمعبود ، والمتابعة للرسول ، فمضاعفة العمل تبع لما يقوم بقلب العامل من قوة الاخلاص

ومن أسباب المضاعفة أن يكون العمل فيه نفع للمسلمين وغناء كالجهاد فى سبيل الله ، الجهاد بالحجة والبرهان وبالسيف والسنان ؛ كما قال تعالى فى نفقات أهل هذا الصنف (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم)

ومما هو كالمتفق عليه بين العلماء الربانيين أن الاتصاف فى جميع الأوقات بقوة الإخلاص لله والنصح لعباد الله ، ومحبة الخير للمسلمين مع اللهج بذكر الله لا يلحقها شىء من الأعمال ، وأهلها سابقون لكل فضيلة وأجر وثواب ، فالسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم

هم يوسف عليه السلام

للأستاذ سيد حسن الشقرا : كبير وعاظ الغربية

قال الله تعالى (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين)

هذه الآيات واضحة الدلالة فى أسلوب قرآنى أخاذ بأن سيدنا يوسف عليه السلام اجتاز الامتحان بنجاح لم يسبق له نظير ، فقد تكاتفت عليه الأحداث وتجمعت لديه أسباب الفتنة وعوامل الإغراء ؛ فسما بالبرهان عن رغبات الجسد ، ومقتضيات الطبع الإنسانى ؛ وترفع بالعصمة عن الاسفاف ، وضرب المثل الأعلى لعظمة الرجولة والوفاء والنزاهة وعلو الهمة ، فصرع أجمل امرأة فى دنيا الملك والسلطان تراوده عن نفسه ؛ فتطلبه فى صباية وتدلله ، وتخادعه وتعرض نفسها عرضاً كله الإغراء والفتنة ، وتكاد تركع تحت أقدامه من ثورة الشهوة الملتهبة ، متحفزة إلى انتهاب هذا الجمال والحسن اللذين أعطى يوسف منهما حظاً هو مضرب الأمثال فى الإبداع الذى يهبه الله من شاء من عباده ، وتمعن فى ثورتها إلى حد إغلاق الأبواب والنوافذ وتجذبه إلى مخدعها وكل ذرة فى جسدها تناديه : هيت لك ، فيتعوذ بالله من هذه الفتنة وهذا النزول الحيوانى الرخيص

وهكذا المعصومون دائما فى حصن الله وكنفه ، لا سبيل للشيطان وأعوانه إلى أرواحهم الصافية المشرقة بالنور الإلهى ، والمتصلة دائما بهذا المدد الربانى الذى تدق قلوبهم بذكره ، وتخفق من خشيته ولا تشبع من الأنس به فقال (معاذ الله)

ثم ذكر أن هذا الفعل فوق كونه فاحشة ومقتاً ، هو أيضا خيانة فظيعة للملك عزيز مصر الذى اشتراه وأحسن مثواه ، فتبناه ورباه وأحسن إليه كل الإحسان ؛ وأى خيانة هى ؟ إنها فى العرض أقدس الحرمات ، فقال (إنه ربى أحسن مثواى) فلا ينبغى أبداً أن أخونه ، ثم ذكر بعد ذلك أن هذه المأساة لو وقعت لكانت ظلما لا يفلح مرتكبه أبداً فقال (إنه لا يفلح الظالمون)

وأنت ترى أن يوسف عليه السلام قابل ثلاثة عوامل قوية من الإغراء والفتنة نصبتها له امرأة العزيز ، بثلاثة تحصنات من العصمة والأمانة والعفة .

أما ثلاثتها فهى :

(١) المراودة ، وهى طلب الفعل برفق وإغراء ومخادعة ، فهى تطلبه فى فتنة وزينة وعشق أنساها مكانتها كسيدة وملكة ؛ وكانت المراودة من جانبها وحدها ، فهى تراوده وتهيم به وهو لم يراودها إطلاقا ؛ فهو خال الذهن من كل شىء يتصل بمعنى المراودة من جانبه .

(٢) غلقت الأبواب ، لتهيىء له أسباب الاستقرار والطمأنينة وتسهل له مقارفة الجريمة ، بإتمام الخلوة وكشف ما يوجب الحياء ستره .

(٣) وهنا يأتى دور العامل الثالث ؛ فتتوسل اليه فى جد وحزم وتقول له (هيت لك)

وأما ثلاثته عليه السلام فهى :

١ ـ التحصن بالله ـ ٢ ـ والوفاء للعزيز ـ ٣ ـ والتنزه عن الظلم .

لذلك هى لما رأت من فتاها المعشوق ؛ هذا التمنع والسمو الإنسانى ، انقلبت من راجية متوسلة إلى عنيفة قاسية ، وهمت به تجذبه بقوة وتهدده . فلم يجد بداً من أن يهم بها هو أيضاً بالفرار منها والتخلص من جنون شهوتها ؛ فهو يهم بتركها لا بالركون إليها ، كما تورط فيه بعض المفسرين ؛ وذلك حين رأى برهان ربه ، يلهمه بالجرى منها والاندفاع نحو الباب ، فاندفعت وراءه تجرى وتسابقه لتحول دون خروجه ؛ فلحقته عند الباب وجذبته بعنف ثائر ، فقطعت ثوبه من الخلف ، وكانت المفاجأة العجيبة فى هذه القصة انها وجدا الملك نفسه عند الباب ، فضبط الواقعة بنفسه ، وحقق الحادثة واستنطق القرائن بما جاء فى تفاصيل القصة من اعترافها آخر الأمر بنزاهة يوسف وصدقه وأمانته (أنا راودته عن نفسه فاستعصم) (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ؛ انه من عبادنا المخلصين) والمخلصون من أخلصهم الله له واجتباهم من خلقه وعصمهم من الذنوب المفرطة فى القبح قبل النبوة وبعدها .

وبهذا العرض السريع فى معنى الايات يتضح للقارىء ان المراد من الاية (ولقد همت به) تطلبه فى عنف وقوة ، وهمّ هو بأن يقابل عنفها بعنف مثله حتى لو تعدت عليه بالضرب لضربها كذلك وكانت ساعة حرجة جداً لم يخلصه منها سوى البرهان ؛ والبرهان اتصال إلهى يخلقه الله فى قلب المصطفين الأخيار من عباده ، وتوجيه إلى ما فيه الخير والعصمة ، فألهمه الله أن يتخلص منها بالفرار ، فكان همه غير همها ، وقصده غير قصدها .

أما ما يروجه عشاق الأساطير والاسرائيليات وراج على بعض المفسرين فزعموا أن همه من نوع همها ، وأنه جلس منها مجلس الرجل من المرأة ولولا أن رأى برهان ربه لأتى معها الفاحشة فهو كلام لا يقبله عقل ولا شرع ولا ذوق سليم .

ولبعض الجهابذة تخريج للاية بما لا يحتاج إلى تأويل فى معنى « الهم » يقول : ان الهم هما ن : هم ثابت وهو ما كان مع عزم وصدق نية وتوجه إلى الفعل وتصميم عليه ؛ و (هم) طارىء يخطر على البال من غير عزم ولا تصميم على الفعل ، ومن الأول همها ، لأنها همت به عازمة مصممة ، ومن الثانى همه . فقد خطر بباله بمقتضى بشريته أن يستجيب لتوسلاتها ، وهو فى الوقت نفسه غير راض عن هذا الفعل ، ولا انعقدت نيته عليه ، وإنما هى خطرة خطرت على البال وسرعان ما تنقشع بسبب من الأسباب ، كما انقشع هم يوسف — بهذا المعنى — حين رأى البرهان .

وتوضيح ذلك ان العلماء قالوا ان الذى يجرى فى النفس خمس مراتب :

(١) الهاجس ، وهو ما يلقى فى النفس ولا يعول فيها (٢) الخاطر ، وهو ما يلقى فى النفس ويعول فيها (٣) حديث النفس وهو ترددها بين فعل الخاطر وتركه ، وتلك مرتبة الشك الذى لا تميل فيه احدى الكفتين (٤) الهم ، وهو توجه النفس نحو الفعل والميل إليه (٥) العزم المصمم على الفعل ، وهذه المرتبة الأخيرة هى مناط الثواب والعقاب ؛ أما المراتب الأربعة قبلها (ومنها الهم) فلا ثواب عليها ولا عقاب ، لأنها ليست مما يدخل فى مقدور العبد ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

فحديث النفس رفع عن هذه الأمة المؤاخذة عليه ، والنفس حين تتحدث إلى نفسها وتتوارد عليها الخواطر والهواجس ، أما الهواجس فقد علمت انها لا تجول فى النفس ولا تحدث فيها أثراً ؛ فهى أشبه شىء بالصوت الذى يرن بجوف النحاس حين تنقره ثم يتلاشى بعد قليل من الزمن كأن لم يكن .

أما الخواطر وهى الأمور التى تلقى فى النفس وتجول فيها فتسترسل فى الأخذ والعطاء حتى تصل إلى المقارنة بين استحسان الفعل الذى خطر بالبال أو عدم استحسانه ، ثم تتأرجح بين هذا وذاك هنيهة من الزمن تنتهى بها إلى الهم الذى هو ترجيح الفعل أو الترك .

كل هذه لمحات خاطفة يدركها العالمون بخلجات النفس ومناجاة الضمير ؛ ولكل إنسان منا أحاديث شتى من هذا القبيل تمر به من غير إرادة له ولا اختيار : فهى أمر خارج عن إرادته ، حتى همه الذى يميل إلى الشىء الذى حدثته به نفسه كذلك لا يملكه لأن الغرائز البشرية تتحكم فيه ولا يتحكم هو فيها بحكم الجبلة والطبيعة ؛ لذلك كانت كلها وفيها الهم لا تكليف فيها ولا ثواب ولا عقاب عليها

أما النتيجة النهائية لهذه الأحاسيس النفسية فهى العزم المصمم الذى هو عقد النية عقدا جازما على الفعل ؛ وذلك لم يقع من يوسف عليه السلام ؛ لأن هذه المرتبة التى هى مناط التكليف ؛ وهى اتجاه نفسه اتجاها مصمما على الفعل لم يحصل عنده اطلاقا ، وإنما الذى حصل عنده أمر خارج عن إرادته لا يملكه ولا يكلف به : هو ميله إليها بمقتضى بشريته ؛ وإن كان فى أعماق قلبه ينفر منه ؛ فهو ميل كميل الصائم إلى الماء فى اليوم الشديد الحر ولكن يمنعه من الماء خوفه من الرقيب الحسيب ؛ وعلى هذا يكون تفسير الاية (ولقد همت به) توجهت نفسها نحو مخالطته ومعانقته وإشباع رغبتها منه (وهم بها) توجهت نفسه نحو مخالطتها بمقتضى الطبيعة البشرية ولكن منعه رؤية برهان ربه فقد حصنه كما علمت ؛ وألهم جميل سيده وقبح فى نظره هذه الجريمة .

وبهذا التفسير الحسن والتخريج البديع ؛ لا نحتاج إلى تأويل فى معنى الهم ، حيث أطلقناه على أحد مدلولاته الوضعية ، ولم يخلُ همه بها (على هذا المعنى) بعصمة يوسف عليه السلام ؛ لأنه غير مكلف بصرف الهم عن نفسه ، ولذلك

لم يتركه ربه فى هذا المأزق بل ألهم ما يخرج به من هذا الحرج ، فحال بينه وبين مرتبة المؤاخذة وهى التصميم والعزم الأكيد على الافضاء إليها واستجابة رغبتها ، فجاء همه بها عارضا غير ثابت ولا مستقر

هذا ما تنادى به الاية الكريمة فى كل حرف من حروفها ؛ وتؤيده الايات السابقة واللاحقة . وقيام الدليل العقلى والاجماع كذلك على عصمة الرسل من الزنا ومقدماته قبل البعثة وبعدها لأنها جريمة قبيحة شنيعة .

ولا ندرى كيف جرت أقلام أولئك الذين كتبوا أن يوسف عليه السلام جلس من امرأة العزيز مجلس الرجل من المرأة . وكيف غفلوا عن مقصد القرآن من قصص هؤلاء الأنبياء الكرام . أليس من مقاصد القرآن فى هذا القصص أن نعتبر وأن نتعظ وأن نتأسى بهم فى الصبر والتزام جانب الحق .

ألا إن يوسف عليه السلام قد ألقى على امرأة العزيز - وعلى الدنيا بأسرها - درسا عمليا فى عظمة الرجولة وكمال العفة (وما يعقلها إلا العالمون) .

﴿ هل اليهود والنصارى ناجون فى الاخرة ﴾

قال تعالى فى سورة البقرة (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الاخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) يوضحه قوله تعالى فى سورة الحج (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا . إن الله يفصل بينهم يوم القيامة . إن الله على كل شىء شهيد) .

فتنة سليمان

قال تعالى (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب ، قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب) .

إن أولى ما يزول به الاشكال فى كلام الله تعالى هو - بلا شك - كلام رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد روى لنا الإمام البخارى فى صحيحه ما نعلم به حقيقة الحال فى هذه الاية الكريمة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال سليمان : لأطوفن الليلة على أربعين امرأة من نسائى تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله ، ولم يقل - إن شاء الله - فطاف عليهن ، فلم تحمل إلا امرأة واحدة ، وجاءت بشق رجل ، فأخذته القابلة ووضعته على كرسى سليمان ، فوالذى نفس محمد بيده لو قال - إن شاء الله - لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون » .

ففتنة سليمان فى أنه لم يقل - إن شاء الله (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) فتركه للمشيئة غفلة عن الله تستحق البلاء والمؤاخذة ، ولذلك عاقبه الله تعالى بأن عامله بنقيض مقصوده ، فلم تحمل من نسائه الأربعين أو المائة - كما فى بعض روايات الحديث - إلا واحدة جاءت بولد غير كامل الخلقة ألهمت القابلة أن تضعه على كرسى سليمان ليراه - ويرى برؤية هذا المخلوق المشوه الناقص ، هذا الجسد الذى يمثل نصف إنسان أنه ما كان ينبغى له فى هذا المقام الذى يجب فيه القصد الخالص إلى الوهاب سبحانه وتعالى ؛ ان يترك المشيئة التى كانت هى الأولى فى هذا الحال . وعندما أدرك انه خالف الأولى وليس ذنبا يخل بالعصمة أناب وطلب المغفرة .

وهكذا يؤدب الله أصفياءه على مخالفة الأولى بالنسبة لمقام الاصطفاء والاجتباء والهداية والشكر للنعم ، فلو قلت أنا أو أنت ما قال سليمان لم تكن شيئا يستحق المؤاخذة ولكن لما قالها سليمان النبى الموهوب ، ونسى ان يعرف الأمر لله ومشيئة الله ؛ حاسبه الله على ذلك حسابا وافيا ، ولم يعطه ولدا واحدا فضلا عن

أربعين ولدا ، لأنه جعل لنفسه من الأمر شيئا حين ترك قول — إن شاء الله — التى هى عنوان كمال العبودية .

نقول : بعد أن لمس سليمان مكان العبرة فى فتنته رجع إلى الله وأناب واستغفر ربه من ذنبه — ان عد ذنبا — قائلا (رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى انك أنت الوهاب) فقدم طلب المغفرة على طلب الملك فغفر الله له واستجاب طلبه وأعطاه ملكا لم يعطه لأحد من العالمين .

هذا ما يليق بأهل القرآن أن يفهموه من كتاب ربهم وحديث نبيهم (ص) وهو ما يتفق مع العقول السليمة : أما ما ملأوا به كتب القصص من اسرائيليات وخرافات حول سليمان وخاتم سليمان فهو مما يجب أن ينزه عنه أدمغة الناس وقلوبهم

قالوا - وبئس ما قالوا - ان سليمان كان يؤثر بحبه واحدة من نسائه الكثيرات وهبها قلبه . واستولت على مشاعره . فكان اذا دخل الحمام أو بيت الخلاء ألبسها خاتم الملك ريثما يقضى حاجته . فاتفق مرة وهو فى حاجته . والخاتم مع زوجته . أن جاءها الشيطان متمثلا فى صورة سليمان وطلب منها الخاتم فأعطته له . فلبسه فدانت له الانس والجن . فلما جاء سليمان الحقيق الى زوجته جرادة وطلب منها الخاتم قالت له أخـــذه سليمان ، قال أنا سليمان قالت له كذبت ، لست سليمان سليمان على سرير ملكه يدبر أمر الرعية . فجعل لا يأتى أحدا ويقول له أنا سليمان الا كذبه فلما رأى ذلك فر الى البحر وصار يعمل حمالا على الشاطىء ويأكل من عمله هذا مدة . ولما انتهت المحنة أراد الله أن يرد اليه ملكه فالقى فى قلوب الناس كراهة الشيطان فخاف أن ينكشف أمره وألقى بخاتم سليمان فى البحر فابتلعته سمكة وخرجت السمكة فى صيد أحد الصيادين والتمس الصياد من يحمل له صيده فجاء سليمان وحمله له . فأعطاه أجره سمكة وكانت هى التى فى جوفها الخاتم فلبسه فعادت له هيبته وملكه . وعلى ذلك يكون معنى قوله تعالى (وألقينا على كرسيه جسدا) هو الشيطان .

خبرونى يا ناس والصدق أولى : كيف يستسيغ عقل مسلم هذا الهراء ؟

سبحانك هذا بهتان عظيم .

القسم الثانى من الكتاب

مشكلات الاحاديث

مقدمة هامة

وجوب العمل بالحديث

(وتفنيد شبهات المانعين)

الناس حيال الحديث النبوى ثلاث فرق :

(١) فرقة جامدة مقلدة للشيوخ المقلدين ، تزعم أن لا طاقة لها على فهم الحديث ، ولا يجب عليها البحث والدرس والسؤال عن معناه أو أخذ الدين منه ؛ فقد كفاهم مؤنة ذلك من سبقهم ، فلا علاقة لها بالحديث .

(٢) فرقة تدعى حرية الرأى ، والاستقلال فى الفهم ، تطرفت فى حريتها واستقلالها حتى زعمت أن الاسلام هو القرآن فقط ، وأما الحديث فأكثر رواياته آحادية لا تفيد اليقين ، وأن النبى ﷺ نهى عن كتابته وإن كتابته كانت بعد زمن طويل من عصر النبوة . . إلخ فقطعت علاقتها بالحديث كذلك .

(٣) فرقة وسط ترى أن الاسلام هو القرآن والسنة الصحيحة التى جاءتنا من الطرق السليمة عن الثقات العدول الذين شهد لهم أئمة الفن بالصدق والحفظ ولا يردون إلا مالا يصح سنده أو تعارض متنه مع أصح منه . وهـــذه هى الفرقه الناجية .

تلك هى الفرق الثلاث وذلك هو موقفهم من الحديث النبوى .

أما الفرقة الأولى فلا نطيل معها القول ؛ لأن السيد رشيد رحمه الله ومن قبله أستاذه الشيخ محمد عبده ، ومن قبلهما شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهم كثير قد أفنوا أعمارهم الطويلة المباركة فى تفنيد خطئها وإعلان خطئها ، ولكنها رسخت فى ضلالتها وأبت الخروج من ظلمتها ، فلم تستفد مما كتبوا من آلاف

الصفحات ولا من مئات الصيحات ، وهيهات هيهات .

وأما الفرقة الثالثة فهى الفرقة التى ينادى برشدها الصدر الأول والذى على نهجه المعول ، وإليه أدعو ولن أتردد أو أتحول .

بقيت الفرقة الثانية ؛ وهى التى رفعت عقيرتها فى هذه الأيام ، وتعلن أن القرآن وحده هو الاسلام ، وترفض بلا هوادة كلام النبى عليه السلام ، متعللة بغير علة وستدحض شبهاتها بما يدمغها بالصغار والذلة .

أهم ما يشاغبون به ينحصر فى قولهم :

(١) الاسلام هو القرآن وحده (٢) أكثر الأحاديث آحاديه (٣) كثرة روايات أبو هريرة مع أنه أسلم متأخراً (٤) نهى النبى عن كتابة الحديث (٥) كتابته بعده بزمن طويل ، لا يؤمن عليها من التغيير والتبديل .

دحض الشبهه الاولى

صرح القرآن الكريم بأن من وظيفة الرسول ﷺ :

(١) تبيين الكتاب (٢) الاستقلال بتشريع الأحكام .

أما الأول فلقوله تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) فلا سبيل إلى العمل بأكثر الشرائع التى جاء بها القرآن إلا ببيان من المعصوم ﷺ يفصل مجملها ، ويوضح مشكلها ، ويعين محتملها ويقيد مطلقها . وكيف تراك مصلياً إذا وقفت عند ما نطق به الكتاب ولم تعرج على السنه فتتعرف أوقاتها ، وعدد ركعاتها وسجداتها ، ومبطلاتها ؟ وما الذى تخرجه من مالك زكاة إذا لم تسترشد بالأحاديث ؟ وكيف تؤدى مناسك الحج إذا لم تستأنس بالرحلة المحمديه إلى مكه المكرمه ؟ فلا جرم كان القرآن فى حاجة إلى السنه كما قال الأوزاعى .

وأما الثانى فلقوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب) وقوله (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) فكرر « وأطيعوا » ليرشدنا إلى طاعة الرسول فيما يأمرنا به استقلالا . وكيف ننكر استقلال السنة بتشريع الأحكام وقد أخرج أبو داود والترمذى عن المقدام بن معديكرب قال : قال رسول الله ﷺ « يوشك رجل منكم متكئا على أريكته

يحدث بحديث عنى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجـــدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه . ألا وإن ما حرم رسـول الله مثل الذى حرم الله - زاد أبو داود - ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، وقد ملئت كتب فقه السنة بما استقلت به السنة من أحكام وتشريع لا داعى هنا لشىء منها .

وقبل الانتقال الى دحض الشبهة الثانية أفضى إليك بما أتوجسه من الخطر على الاسلام من هذه الفرقة ، فإنها لا تقف فى تهورها عند حد الحديث ، بل تجرأ بعضهم على القرآن نفسه يتلاعب بآياته المحكمة ويدعى أن قوله تعالى (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) لا ينطبق إلا على من تكرر منه وقوع السرقه !

دحض الشبهة الثانيه

هذه الشبهة من وحى الشيطان ومكابرة للواقع المشاهد بالعيان ومخالفة صريحة لما أقره القرآن : أما مكابرتها للواقع فإن أصحاب هذه الشبهة لا يطبقونها على أحوالهم وتصرفاتهم . فان أحدهم لا يتوانى عن العمل بالخبر الذى يأتيه به تلغراف من رجل واحد ، ولا يتأخر عن مقابلة صديق أو عميل إذا أرسل يستدعيه على لسان رجل واحد ، بل حركة الأسواق قائمة على مخاطبات تليفونية من رجل واحد إلى رجل واحد ، ولو ذهبنا نعدد أمثال هذه المسائل ؛ لطال بنا القول من غير طائل

وأما أن هذه الشبهة تخالف صريح القرآن فهو واضح جلى ؛ فقد قص علينا أن موسى صلى الله عليه وسلم جاءه رجل واحد يخبره بأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه ، ونصحه هذا الواحد بالفرار من وجه الظلم ؛ فلم يرد عليه موسى خبره بل سارع إلى تنفيذه .

وموسى عليه السلام عمل أيضاً بخبر (نصف رجل واحد) حينما جاءته « إحداهما تمشى على استحياء » وأخبرته أن أباها يدعوه ليجزيه أجر سقيه لهما ؛ فلبى موسى الدعوة ؛ ولم يطلب شهوداً يتعذر تواطؤهم على الكذب .

ولا يفوتنا أن موسى فى هاتين الحادثتين لم يكن قد أرسل بعد ؛ وأن مسلكه فيهما كان سليما ، وإلا فأين تصريح القرآن أو تلويحه بخطئه أو لومه ؟

وما لنا نذهب بعيداً وهذه أديان الله جميعاً إنما قامت فى كل عصر على لسان رسول واحد ، فهل أخطأ وضل كل أتباع الأنبياء ؟

ونختم ردنا على هذه الشبهة بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اكتفى فى أمور دينية مهمة برجل واحد ؛ وقد عقد البخارى فى أواخر صحيحه باباً خاصاً ذكر فيه بضع حوادث مهمة كالأذان وتغيير القبلة والصوم والفرائض والأحكام ، وكلها قائمة على خبر الرجل الواحد .

دحض الشبهة الثالثة

أما هذه الشبهة فقد تولى الرد عليها نفس المتهم عند هؤلاء ، المرضىّ عنه عند سائر المسلمين ، ودافع عن نفسه فأحسن الدفاع ، وقد رضى بدفاعه وتقبل أخباره أولئك الذين كانوا أحرص على دينهم ، وكانوا أطهر قلوبا وأزكى نفوسا وفازوا بتزكية الرسول ﷺ لهم وأنهم خير القرون :

حدث أبو اليمان قال حدثنا شعيب عن الزهرى قال أخبرنى سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضى الله عنه قال : إنكم تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقولون ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل حديث أبى هريرة ؟ وإن إخوتى من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق وكنت ألزم رسول الله على ملء بطنى ، فأشهد إذا غابوا ، وأحفظ إذا نسوا . وكان يشغل إخوتى من الأنصار عمل أموالهم ، وكنت امرءاً مسكينا من مساكين الصفة أعى حين ينسون وقد قال رسول الله فى حديثه « لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضى مقالتى هذه ثم يجمع إليه ثوبه إلا وعى ما أقول ، فبسطت ثوبى حتى إذا قضى رسول الله مقالته جمعتها إلى صدرى ، فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ تلك من شىء » رواه البخارى وهو يدل على قوة حفظه وتفرغه له .

(دحض الشبهة الرابعة)

يشيرون إلى ما روى مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال « لا تكتبوا عنى غير القرآن ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه وحدثوا عنى فلا حرج » .

نقول نعم يا هؤلاء آمنا به : ولسنا ممن يضربون أحاديث الرسول ﷺ بعضها ببعض . ولسنا مثلكم نؤمن ببعض ونكفر ببعض .

كان هذا النهى فى أول الدعوة المحمدية ، ثم أمر صاحب الدعوة أن يكتبوا لأبى شاه خطبته عليه السلام وكانت فى بيان وتفصيل أحد أصول الاسلام ، فهل خرجت هذه الخطبة عن دائرة الأحاديث ؟ بل ثبت أنه عليه السلام قال فى مرض موته « هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده » فاختلف المجلوس عنده فى تنفيذ هذا الأمر أو عدمه فقال لهم « قوموا » فكان ابن عباس رضى الله عنه يرى أن حرمان الأمة من ذلك الكتاب المحمدى رزية ليس بعدها رزيه ، كما رواه البخارى

وحكمة النهى أولا ثم الأمر أخيراً أن عدد الكتبة فى مبدأ الدعوة كان قليلا فاقتصر على كتابة القرآن ؛ فلما توافر عددهم أذن ﷺ بكتابة الحديث

هذه واحدة — والثانية أنه عليه السلام كان يخشى أن يختلط شىء بالقرآن ، فنهى عن كتابة أحاديثه ، فلما أمن ذلك بعد أمر بالكتابة .

ذلك أن القرآن وإن كان بدعا فى أسلوبه فريداً فى نظمه ، يمتاز عن غيره بالاعجاز . لكن المسلمين فى أول الاسلام كانوا حديثى عهد بنزوله ؛ وكان النازل منه يسيراً فلم تكن ميزته المثلى قد توطنت النفوس جد التوطن ، ولا تمكنت فيها فضل التمكن ؛ فكان من الممكن أن يشتبه على من دون فرسان البلاغة الوحى المتلو بغير المتلو فوجب التمييز بالكتابة ، فلما مرنوا على أسلوبه وطال عهدهم بسماعه وتلاوته حتى أصبحوا إذا سمعوا الآية تتلى أو السور تقرأ أدركوا لأول كلمة تقرع أسماعهم أن ذلك وحى الله المتلو ؛ ولم يحم الاشتباه حول نفوسهم ، لما مرنوا على ذلك أذن لهم بكتابة الحديث لأمن اللبس .

ولا يقعن فى نفسك مما أسلفت أنه لم يدون شىء من السنة فى عهد النبى ﷺ وإن كان هذا هو الشأن الغالب ، فقد كان عبد الله بن عمرو يقيد كل ما سمعه من رسول الله ﷺ . وكتب رسول الله ﷺ كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم وغيره ؛ ومن اشتغل بهذا الفن يعلم من ذلك الشىء الكثير .

(دحض الشبهة الخامسة)

إن الصحابة وأكابر التابعين كانوا على علم بالقرآن . وكانوا أسبق الناس الى الائتمار بأمره والانتهاء بنهيه ، وقد علموا ما أوعد الله به كاتم العلم من لعن وطرد عن رحمته ، فكانوا إذا علموا شيئا من سنن الرسول بادروا إلى تعليمه وإبلاغه خروجا من التبعة وابتغاء للرحمة ، فسرعان ما ينتشر بين الجماهير ؛ فلئن نسى بعض منهم فرب مبلغ أوعى من سامع ، فمن البعد بمكان أن يضيع شيء من السنة أو يخفى على جمهور المسلمين .

هذا وحده كاف لدحض هذه الشبهة ، فما بالك إذا أضفنا إلى ذلك ما اشتهر به العرب من قوة الحفظ والذاكرة ؛ أضف إلى ذلك ما هو معلوم عن الصدر الاول من التحرى والتثبت فى قبول الحديث ، كل ذلك كفيل بأن يزيل المخاوف من تطرق التغيير والتبديل فى معانى الألفاظ النبوية ومقاصدها

على أن زمن تدوين السنة لم يبعد طويلا عن زمن النبوة ، فما مضى إلا أقل من قرن واحد حتى انتشر الاسلام واتسعت البلاد وتفرقت الصحابة فى الأقطار ومات كثير منهم وقل الضبط ؛ حينئذ دعت الحاجة إلى تدوين السنة وتقييدها بالكتابه ، ولعمرى إنها الأصل ، فلما أن أفضت الخلافة إلى الامام العادل عمر بن عبد العزيز كتب على رأس المائة إلى أبى بكر بن محمد عامله وقاضيه على المدينه « انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه ، فإنى خفت دروس (١) العلم وذهاب العلماء ، وكذلك كتب إلى عماله فى أمهات المدن الاسلاميه .

وهذا العمل الجليل كان له ما بعده ، فجاء أكابر علماء القرن الثانى فوجدوا نواة طيبة لجمع أحاديثه ﷺ وأساساً صالحا فبنوا عليه ، ونبغ منهم إمام دار الهجرة مالك رحمه الله وحماد بالبصرة وسفيان بالكوفة والأوزاعى بالشام ومعمر باليمن وابن المبارك بخراسان وغيرهم كثير .

ثم جاء القرن الثالث وجاء معه رجال تخصصوا فى فنون الحديث واشتغلوا بدراسة رجاله ، وبينوا صحيحه من سقيمه ؛ نبغ منهم البخارى ومسلم وغيرهما .

---

(١) درس الرسم عفا وذهب وانطمس

وإن ذلك القرن الثالث لأجلّ عصور الحديث وأسعدها بخدمة السنة ، ففيه ظهر كبار المحدثين وجهابذة المؤلفين وحذاق الناقدين ؛ وفيه أشرقت شموس الكتب الستة التى كادت لا تفلت من صحيح الحديث إلا النزر اليسير ، والتى عليها يعتمد المستنبطون ، وبها يعتضد المناظرون : وعن محياها تنجاب الشبه ، وبضوئها يهتدى الضال ؛ وببرد يقينها تنثلج الصدور .

* * *

ولا نطيل القول مع هؤلاء الذين يريدون أن يحرموا الأمة من هذا الخير العظيم وإنما نسـوق إليهم سؤالا واحداً طالما وجهناه إلى بعضهم فلم يجدوا له جواباً ؛ وسيظل بلا جواب ما دام فى الأمة من يدافع عن هذا الحصن الحصين .

نعم هو سؤال واحد : بأى سبب تأخذون ببعض السنة وتردون بعضها مع أن الرواة فى الشقين هم هم والمصدر هو هو ، والمخرج هو هو ؟

* * *

وهناك فريق آخر يقول إننا نقبل ما فى الصحيحين وغيرهما بعد عرضه على العقل ، فما وافق عقولنا قبلناه ، ومالا توافقه رفضناه ، ويذكرون هنا حديثاً فى تمجيد العقل وأن من وظائفه عرض السنة عليه واشتراط موافقته لقبولها ، وحديثهم هذا لا أصل له ولا أثر له عند المحدثين ، وإنما رأيته فى « أدب الدنيا والدين » وهو كتاب لا يتصل بهذا الفن من قريب ولا بعيد .

ونقول لهم : إن العقول تتفاوت قوة وضعفاً ، ومالا يقبله عقلك يقبله عقل سواك ؛ فتحكيم العقل فى هذا خطأ مبين ، وما أحسن ما روى عن على « لو كان الدين بالعقل لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه »

شيخ الإسلام ابن تيمية

يجيب عن حديث

« وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن »

هذه قطعة من حديث صحيح ، التبس فهمها على كثير من الناس ، وقد وقفنا على سؤال موجه إلى شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله بخصوصها ، وأجاب عنها إجابة تستحق والله أن تكتب بماء الذهب ، وهى تدل على ماوصل إليه هذا الإمام العظيم من الفقه الدقيق والفهم المستنير ، لسنة رسول الله ﷺ

وقد اقتنعت عن بينة أن أى مسلم فى هذا العصر لا يقرأ لهذا الامام ، فإنه لا يمكن أن يفهم دقائق الاسلام ، وإليك السؤال والجواب :

وَسُئل شيخ الإسلام رحمه الله

عن قوله ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل « وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته » مامعنى تردد الله ؟

فأجاب : هذا حديث شريف رواه البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وهو أشرف حديث روى فى صفة الأولياء ؛ وقد رد هذا الكلام طائفة وقالوا إن الله لا يوصف بالتردد ، وإنما يتردد من لا يعلم عواقب الأمور ، والله عالم بالعواقب ؛ وربما قال بعضهم إن الله يعامله معاملة المتردد

والتحقيق أن كلام رسول الله حق ، وليس أحد أعلم بالله من رسوله ولا أنصح لأمته منه ؛ ولا أفصح ولا أحسن بياناً منه ؛ فإذا كان كذلك كان المتحذلق والمنكر عليه من أضل الناس وأجهلهم وأسوئهم أدباً ؛ بل يجب تأديبه وتعزيره ويجب أن يصان كلام رسول الله ﷺ عن الظنون الباطلة والاعتقادات الفاسدة ، والمتردد منا - وإن كان تردده فى الأمر لأجل كونه ما يعلم عاقبة الأمور - لا يكون ما وصف الله به نفسه بمنزلة ما يوصف به الواحد منا ، فإن الواحد منا قد يتردد تارة لعدم

العلم بالعواقب ؛ وتارة لما فى الفعلين من المصالح والمفاسد ، فيريد الفعل لما فيه من المصلحة ويكرهه لما فيه من المفسدة لا لجهله به ، كالشىء الواحد الذى يحب من وجه ويكره من وجه ، كما قيل :

الشيب كره وأكره أن أفارقه فاعجب لشىء على البغضاء محبوب

وهذا مثل إرادة المريض للدواء الكريه ؛ بل جميع ما يريده العبد من الأعمال الصالحة التى تكرهها النفس هو من هذا الباب . وفى الصحيح « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » ، وقال (كتب عليكم القتال وهو كره لكم)

ومن هذا الباب يظهر معنى التردد المذكور فى الحديث ، فإنه قال « ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه » فإن العبد الذى هذا حاله صار محبوباً للحق محباً له ، يتقرب إليه أولا بالفرائض وهو يحبها ، ثم اجتهد فى النوافل التى يحبها ويحب فاعلها ، فأتى بكل ما يقدر عليه من محبوب الحق . فأحبه الحق لفعل محبوبه من الجانبين بقصد اتفاق الارادة ، وبحيث يحب ما يحبه محبوبه ، ويكره ما يكرهه محبوبه ؛ والرب يكره أن يسىء عبده ومحبوبه : فلزم من هذا أن يكره الموت ليزداد من محاب محبوبه ، والله سبحانه وتعالى قد قضى بالموت ، فكل ما قضى به فهو يريده ولا بد منه . فالرب مريد لموته لما سبق به قضاؤه ، وهو مع ذلك كاره لمساءة عبده ، وهى المساءة التى تحصل له بالموت : فصار الموت مراداً للحق من وجه مكروها له من وجه ، وهذا حقيقة التردد ؛ وهو أن يكون الشىء الواحد مراداً من وجه مكروها من وجه ، وإن كان لا بد من ترجيح أحد الجانبين كما ترجح إرادة الموت ؛ لكن مع وجود كراهة الرب لمساءة عبده ؛ وليس إرادته لموت المؤمن الذى يحبه ويكره مساءته كإرادته لموت الكافر الذى يبغضه ولا يريده .

انتهى كلامه رحمه الله .

أحاديث الدجال

تواترت الأخبار النبوية فى جميع كتب السنة الصحاح وغيرها تواترا لا يدع للريب مكانا أنه يخرج فى آخر الزمان مخلوق فتان كذاب يسمى الدجال ، يخلق الله على يديه أمورا تعد عظيمة من الخوارق ، يمتحن بها عباده كما يمتحنهم فى كل آن ، ويميز بها المنافق من المؤمن .

وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فى حديث مسلم أنه صلى الله عليه وسلم أمر بالاستعاذة من الدجال فى آخر الصلاة ، وهذا لاهتمام الشارع به ولخوفه منه على أمته .

فهذا الدجال معلوم عند عامة المسلمين وخاصتهم ، لا يشكون فيه كما لا يشكون فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد بمكة ، وهاجر إلى المدينة .

وقد استشكل بعض العلماء فى هذا العصر أحاديث الدجال وشككوا فيها ، ونحن نذكر كلامهم ونجيب عنه :

(١) لو صحت أحاديث الدجال وأنه خارج قبل الساعة لا محالة لجعل الناس فى أمن من قيام الساعة ما لم يخرج الدجال ، ولم يكونوا فى خوف مستمر من مفاجأتها إياهم ، ولا ريب ان المصلحة فى ان يظلوا أبدا خائفين من قيامها ومفاجأتها ليحملهم ذلك على أن يصلحوا ويجتنبوا محارم الله .

(٢) أحاديث الدجال تخالف نصوص القرآن لأنه يقول فى الساعة (لا تأتيكم إلا بغتة) ولو كان الدجال خارجا قبلها ما كان إتيانها بغتة .

(٣) هذا الدجال يدعى لنفسه أكبر الدعاوى وهى الربوبية ، والروايات تخبر أن الله يخلق على يديه الأمور العظيمة ، ويمكن له فى الأرض ، وليس من سنة الله ان يؤيد الكاذبين .

(٤) ان الروايات تخبر ان الله يهبه من الخوارق ما يشبه معجزات الأنبياء ، وهذا يقدح فى صدق الأنبياء .

(٥) ان الاخبار فيه متخالفة تخالفا يوقعها فى السقوط وان لا يعتد بها .

(٦) هذا الدجال أعظم الفتن التى تقع قبيل الساعة كما تقول الروايات . فلماذا لم يذكره القرآن وقد ذكر ما هو أقل منه خطرا :

الجواب

(١) لئن كانوا فى مأمن من أن تقوم الساعة ومن أن تفاجئهم قبل أن يخرج الدجال ليكونن فى خوف مستمر من مفاجأة الدجال فيحملهم ما يتوقعون من خروج الدجال على أن يصلحوا وأن يتقوا فتحصل النتيجة المطلوبة .

وأيضا قد ذكر الله تعالى فى آيات عدة سعة عفوه ومغفرته ورحمته ، وهذا قد يثبط بعض الناس عن الطاعات ، وقد يغرى بعضهم على المحرمات ، اعتمادا على هذا الفضل فهل دل هذا على أن هذه النصوص باطلة أو أن التحديث بها غلط ؟ ومثله أخبار الدجال .

ثم أن من ينكر خروج الدجال قبيل الساعة وأنه من أماراتها ويقول ماحكيناه عنه يلزمه أن يرد حديث جبريل الصحيح المشهور وفيه بيان الايمان والإسلام وختمه بأمارات الساعة ، بل يلزمه أن يرد قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك ، يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها) وغيرها كثير .

(٢) مخالفة أحاديث الدجال لقوله تعالى (لا تأتيكم إلا بغتة) فنقول : مجىء الدجال إما أن يكون علامة على أن الساعة جاءت ـ أو على أنها اقتربت) فعلى الأول يكون مجىء الدجال مجيئا للساعة وهو يأتى بغتة ، فهى مثله تأتى بغتة ، ويكون مجيؤه كمجىء جزء منها ؛ وعلى الثانى فليس العلم باقترابها يمنع أن تأتى بغتة ، ولا شك فى هذا ، قال تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) (اقترب للناس حسابهم) .

(٣) أما تأييده بالخوارق مع أنه كذاب ، وذلك مما يخالف سنة الله ، فنقول أن سنة الله تأبى أن ينال الكذاب الخوارق التى تؤيد دعواه الباطلة بغير أن يقرنها بما يكشف حقيقتها وكذبه ، أما أن ينال شيئا من ذلك مع إظهار كذبه فليس فى ذلك مخالفة لسنة الله ، ولا تعزير بعباده ، وهذا ما سيفعله بالدجال فقد كتب بين عينيه « كافر » يقرؤه كل أحد ؛ وأصابه بعيب ظاهر لازم وهو أنه أعور وملأه بآيات

النقص مع أنه يدعى الربوبية ، وقد أوتى الشيطان من قوة التسلط على البشر حتى أنه ليجرى منهم مجرى الدم ؛ وهو شيء لم يؤته رسل الله ولا عباده الصالحين ، وأوتى فرعون وقومه ملكا لم يعطه موسى وأنصاره ؛ فليس ببعيد أن يؤتى الدجال ما جاءت به الأخبار وليس فى ذلك ما يدل على كرامة ولا على فضل .

(٤) أما كون ما يعطاه الدجال يشبه ما أوتيه رسل الله فنقول ان الدجال أوتى ما أوتى مع اظهار حاله وحقيقته وكذبه .

أما الرسل فقد أيدهم الله بما يؤكد صدقهم وحقهم على مرور الأيام .

• • •

ونحب أن ننبه على أمر هام فى هذا الموضوع وهو أن خروج الدجال على ما وصفت الأحاديث يصدق الأنبياء ويقوى شأنهم ؛ فإنه إذا خرج كما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بعد القرون الطويلة كان هذا من أعظم البراهين على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه يوحى إليه ، وأنه لا يمكن أن تكون كل هذه المعلومات المحجوبة قد أدركها بعقله .

(٥) أما اختلاف الروايات فى الدجال فهو أمر عادى ؛ فما من حادث خطير فى التاريخ القديم أو الحديث يصل إلى أقطار الأرض من عدة مصادر إلا ونجد انها اتفقت على وقوع الحادث ولكنها تختلف اختلافا كبيرا فى وصفه وزمنه وملابساته وأسبابه ونتائجه يعلم ذلك حق العلم كل من اشتغل بهذه العلوم .

ولم تخرج أحاديث الدجال عن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة خوفه على أمته منه كرر وكرر الحديث عنه للتحذير وفى مرة يطيل وفى مرة يقتصر ؛ فجاءت ألفاظ الروايات مختلفة فى أشياء ولكنها تتفق على مجيئه .

(٦) أما انه لم يذكر فى القرآن فيقال : القرآن لم يذكر كل شيء بالتفصيل ؛ فهو لم يذكر عدد الركعات فى الصلاة ، ولا مواقيتها ولا ما فرض منها فى اليوم والليلة ، ولم يذكر مقادير الزكاة . إلى غير ذلك .

بئس اخو العشيرة

أخرج البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أن رجلا استأذن على النبى صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة ، فلما جلس تطلق النبى صلى الله عليه وسلم فى وجهه وانبسط إليه ، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة : يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ثم تطلقت فى وجهه وانبسطت إليه ، فقال صلى الله عليه وسلم يا عائشة متى عهدتنى فاحشا ؟ ان شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره .

هذا أدب عال من الأدب المحمدى الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، ولكن هناك أناس يزعمون لأنفسهم عقلا وذوقا أسمى مما أوتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتسرعون فى رد هذا الحديث - مع رواية البخارى له - ويقولون ان الحديث ليس فيه تلك الصراحة والشجاعة الأدبية التى تقول للأعور ، أعور فى عينه ، وليس الأمر كما يتوهمون وإليك الجواب :

(١) ان الرجل الذى استأذن على النبى صلى الله عليه وسلم وعامله هذه المعاملة هو عيينة بن حصن ، وكان يقال له الأحمق المطاع ، وقد رجا النبى صلى الله عليه وسلم بما فعله معه أن يتألفه ليسلم قومه لأنه كان رئيسهم .

(٢) أفاد الحديث جواز غيبة المعلن بفسقه أو فحشه مع جواز مداراتهم اتقاء شرهم ما لم يؤد ذلك إلى المداهنة فى دين الله تعالى .

والفرق بين المداراة والمداهنة أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو هما معا وهى مباحة وربما استحبت .

والمداهنة ترك الدين لصلاح الدنيا ، وهو صلى الله عليه وسلم إنما بذل له من دنياه حسن عشرته ، والرفق فى مكالمته ، ومع ذلك فلم يمدحه بقول ، فلم يناقض قوله فيه فعله فإن قوله فيه حق ، وفعله معه حسن عشرة .

حديث لا عدوى

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر » رواه البخارى ومسلم .

العدوى هى انتقال المرض من إنسان إلى آخر ، وهذا أمر واقع لا شك فيه ، ويدل عليه النص والاستقراء والطب والاجماع فروى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يورد ممرض على مصح » والممرض هو صاحب الإبل المريضة ، والمصح عكسه ، أى لا تورد الابل المريضة على الابل الصحيحة حذر العدوى وروى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « فر من المجذوم فرارك من الاسد » .

وفى الصحيحين انه عليه السلام قال « إذا سمعتم بالطاعون فى أرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا فرارا منه » .

وأما الاستقراء فما زال الناس يشاهدون الصحيح ينتابه المرض إذا خالط المريض ، وأجمع الطب على حدوث العدوى .

إذاً فما معنى « لا عدوى » عنه جوابان .

(١) ان قوله « لا عدوى » نهى لا نفى والمعنى لا يعدى بعضكم بعضا ، أى لا تتعرضوا لذلك بل اتقوه واتقوا مكانه ، وهذا كقوله تعالى (فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق) أى لا يكن ذلك منكم . ومثل قوله صلى الله عليه وسلم « لا ضرر ولا ضرار » وأشباه هذا كثير .

ويصحح هذا الجواب آخر الحديث ، فقوله صلى الله عليه وسلم « ولا طيرة » أى لا تشاؤم ؛ معناه لا تتطيروا ولا يقع منكم ذلك ، وليس المعنى ان الطيرة مفقودة فى الناس .

(٢) أن يكون ذلك نفيا لما كان عليه الجاهلية لا لنفس العدوى لأن أهل الجاهلية كانوا يبالغون فى أمر العدوى والتشاؤم حتى يمتنعون من زيارة المرضى ، والقيام عليهم .

فهذا النوع من العدوى هو المنفى بهذا الحديث ، لا أصل العدوى ، وهذا مثل قوله تعالى (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) والشفاعة موجودة فى ذلك اليوم على وجه مشروع ، والمنفى فى الآية هى الشفاعة التى كان يظنها أهل الجاهلية .

نحن أولى بالشك

ورد فى الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال (نحن أولى بالشك من إبراهيم) فما معنى ذلك ؟ — هذا الحديث يأتى فى كتب التفسير عند قوله تعالى (وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) فقال رسولنا صلى الله عليه وسلم (نحن أولى بالشك من إبراهيم) أى أننا نقطع بعدم شكه كما نقطع بعدم شكنا أو أشد قطعا . نعم ليس فى الكلام مايشعر بالشك فإنه مامن أحد إلا وهو يؤمن بأمور كثيرة إيمانا يقينيا وهو لا يعرف كيفيتها ، ويود لو يعرفها . فهذا التلغراف الذى ينقل الخبر من المشرق إلى المغرب فى دقيقة واحدة يوقن به كل الناس فى كل بلد يوجد فيه ويقل فيهم العارف بكيفية نقله للخبر بهذه السرعة ، أفيقال فيمن طلب بيان هذه الكيفية أنه شاك بوجود التلغراف ؟

طلب المزيد فى العلم والرغبة فى استكناه الحقائق والتشوف إلى الوقوف على أسرار الخليقه مما فطر الله عليه الانسان ، وأكمل الناس علماً وفهماً ، أشدهم للعلم طلبا والوقوف على المجهولات تشوقا ؛ ولن يصل أحد من الخلق إلى الاحاطة بكل شىء علما .

وقد كان طلب الخليل عليه السلام رؤية كيفية إحياء الموتى بعينيه من هذا القبيل

خواطر النفس

ورد فى الصحيحين والسنن أنه صلى الله عليه وسلم قال « ان الله تجاوز لى عن أمتى ما حدثت به أنفسها مالم تتكلم أو تعمل به » .

وهو فى ظاهره يعارض قوله تعالى (وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) .

قيل إن هذه الاية منسوخة ، رووا فى ذلك بعض روايات عن بعض الصحابة والقول بالنسخ ممنوع من وجوه :

(١) إن قوله (يحاسبكم به الله) خبر ، والاخبار لا تنسخ كما هو معروف فى علم الأصول .

(٢) إن كسب القلوب وأعمالها مما دل الكتاب والسنة والاجماع على ثبوته والجزاء عليه ، ظهر أثره على الجوارح أم لم يظهر ، وهو مادلت عليه الآية . وقال تعالى (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) (ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عـــذاب أليم فى الدنيا والاخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون) والحب من أعمال القلب .

فقوله تعالى (ما فى أنفسكم) معناه ما ثبت واستقر فى أنفسكم ويدخل فيه الكفر والاخلاق الراسخة وكتمان الشهادة .

إذاً يكون معنى قوله ﷺ « ان الله تجاوز لى عن أمتى ما حدثت به أنفسها » المراد به تلك الخواطر السانحة ، والوساوس العارضة وحديث النفس الذى لا يصل إلى درجة القصد الثابت والعزم الراسخ .

اكل الكافر فى سبعة أمعاء

روى البخارى ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال « المؤمن يأكل فى معى واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » فهل تركيب خلقة المؤمن يغاير تركيب خلقة الكافر المشاهد أنهما سواء ، فما معنى الحديث ؟

بيان الحديث أن المؤمن حقا ، الصادق فى إيمانه ، كثير التفكير فى الاخرة ، وفى عذابها ، وهو كثير الخوف من الله ومن عصيانه وعقابه ، كثير التعبد ، كثير الرغبة فى الجنة والزهادة فى الدنيا ولذاتها فهو لذلك كله يقل نصيبه من الدنيا من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وجمع مال ، فهو يأكل فى معى واحد فقط .

أما الكافر فهو لا يبالى بالدين ، ولا بما يغضب الله ، فهو عكس المؤمن فى ذلك ، فليس له شىء يهمه سوى الدنيا ، والاستكثار منها ، وجمعها ، والتفنن فى تناول لذاتها ، فهو كثير النصيب منها كمن يأكل فى سبعة أمعاء .

والسبعة الأمعاء هنا لا يراد بها حقيقتها ، وهذا العدد يراد به التكثير لا التحديد مثل السبعين ، والأكل هنا لا يراد به الأكل المعروف وهو ازدراد الطعام بل يراد معنى أعم ؛ وهو التمتع بها بالأكل والشرب واللبس والادخار .

وبما ذكرنا صار الحديث واضحا وقاعدة من قواعد الأخلاق الاسلاميه ، وهى أن المؤمن العاقل الحكيم لا بد أن يكون مستقلا من الشهوات ؛ مستقلا من خدمة الدنيا للدنيا ، وليس هو بذلك الطماع الجشع ولا البخيل الشحيح ؛ وإنما همه فوق ذلك وأسمى ، وهو تصفية الروح وتزكية العقل ، ولا أهدم لأخلاق الأمم وللمدنية الفاضلة من الحرص على الماديات والشهوات .

وأفاد الحديث أن من أوصاف الكفار حرصهم على التمتع بالدنيا وأموالها وشهواتها وهو يعم كل من كان كـــذلك مهما كان اسمه وبلده ، ولعل فيه رادعا لأولئك الذين يرمون الناس بالكفر والشرك دون مبالاة ؛ ويزعمون أن الايمان والتوحيد ، بل والجهاد فى سبيل ذلك ؛ إنما هم أهله وأنصاره ، ويخدعون السذج بهذه الدعوى وقد انكشف حالهم لكل ذى عينين .

﴿ لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ﴾

روى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذه الكلمة الجامعه ولكن هذا الحديث استشكله أناس فقالوا إن أراد حقيقة اللفظ فغير صحيح ؛ فقد يلدغ المؤمن من الجحر مرات ، وان أراد مجاز اللفظ ، وأن الحديث مثل مضروب وان المؤمن لا يخدع مرتين ، كان أيضاً غير صحيح ، والمشاهد أن المؤمن أكثر الناس انخداعا فى هذا العصر ، وهذا الشيطان يخدعه فى يوم كل مرات .

والجواب أن الحديث صحيح الاسناد ؛ صحيح المعنى ، ومن العبارات التى يعجز عن بلوغها البلغاء .

وبيان ذلك أن المؤمن حقا يجب أن يكون فطينا ذكيا لا يخدع بل يحتاط لنفسه ولدينه ؛ ولا يكون من البله المغفلين ينقادون لكل خادع ؛ ويقعون فى كل حبالة ، تخدعهم الساسة على بلادهم ، ويخدعهم المبشرون على دينهم ، فليس هؤلاء من المؤمنين حقاً ، الذين إذا قيل « المؤمنون » فهم المعنيون ، وقد جاء فى الخبر أن المؤمن كيس فطن فالحديث لا يريد الجحر حقيقة ولا يريد العدد حقيقة ، بل هو مثل مضروب لحال المؤمن الصحيح الايمان ؛ فحاله الفطنة واليقظة والتفكير فيما يفعل وما يترك .

تحريم من قال لا اله الا الله على النار

عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار » وفى معناه أحاديث أخرى ، وكلها صحيحة أخرجها أصحاب الصحاح .

وقد أسرف قوم — بعد فساد الزمان — فزعموا أن من شهد هذه الشهادة — وما أسهلها — فهو محرم على النار ؛ وإن فعل ما فعل من المنكرات ، وترك ما ترك من الطاعات ؛ واحتجوا بهذه الأحاديث .

وهذا القول من الدين والصواب فى مكان سحيق ؛ وهو مخالف قطعيات الدين وإجماع الأئمة والمعقول ، والآيات تنادى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) بل قد جعل القرآن العمل هو الطريق إلى الجنة وحده فقال (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) .

وقد اعترف أهل النار أن أول ما يدخلهم النار هو ترك الأعمال فقالوا لما قيل لهم (ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين) .

وهذه الآيات تدل على أن الايمان بلا عمل لا فائدة فيه ، بل لا يسمى إيمانا كما يقول السلف : ان الايمان قول وعمل وعقيدة ؛ وهذا قول أهل الحق قاطبة وقد عرف القرآن المؤمنين فى آيات كثيرة (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) إلخ والآيات فى أول سورة البقرة وغيرها . .

هذه براهين قاطعة على ان الشهادتين وحدهما لا يعصمان من النار ولا يوجبان الجنة ، ولقد توعد على سائر المعاصى بالنار والغضب والحرمان ؛ فذكر متعاطى الربا بأشد عبارات الوعيد والتهديد ؛ وكذلك فعل فى الزنا والقتل والسرقه والظلم والعدوان

والأحاديث لا تحصى كثرة فى وعيد العصاة « لا يدخل الجنه قاطع رحم » (لا يدخل الجنه من كان فى قلبه مثقال حبه من خردل من كبر) (لا يدخل الجنه نمام) إلخ إلخ .

ثم لو صح لهم أن يتمسكوا بظاهر أحاديث الشهادة فقط لصح ان من

شهد أن لا إله إلا الله ثم كفر بالملائكة وكل ما بعد الموت ، فالنار محرمة عليه ، وهذا لا يقوله ملى .

إذاً ما معنى هذه الأحاديث ؟

الجواب : يجب أن نفهم الأحاديث مع نظرنا للأحوال التى أحاطت بها ، والحال من قال ومن قيلت له ، وإن لم ننظر إلى ذلك بل أردنا فهمها من ألفاظها مجردة من كل قرينة وحال ، كنا غالطين وضالين . وهذا أمر عام يجب أن يراعى فى كل الأقوال .

إذاً يجب أن نفهم حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وحال الذين خاطبهم بتلك الأحاديث لنستطيع فهمها على وجه الصواب ، نظرنا فوجدنا ان الذين كانوا زمن الرسول والذين كان يخاطبهم بتلك الأخبار ، لم يكن صلى الله عليه وسلم يدعوهم أول ما يدعوهم إلا إلى الشهادتين ، فيأبون أن يشهدوا أن لا معبود إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وحينما ينشرح صدر أحدهم للشهادتين يسارع إلى العمل بل وإلى المبالغة فيها احيانا .

فمعنى قوله ﷺ « من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار » يريد من قبل دعوته التى جاء بها وهى التوحيد والتصديق أنه رسول الله ، وذلك مستلزم للأعمال والطاعات ، ولا يراد به أن يقول ذلك مع ترك الأعمال ، فإن هذا لم يكن موجودا فى المخاطبين ولا معهودا فى زمنهم ، ومثال هذه الأحاديث أن يقوم إنسان يطلب الملك فيخرج كتابا للناس يقول : من أقر بأنى ملك عليه واعترف لى بذلك أعليته وأرضيته دائما ، ولم أغضب عليه أبداً . فهل يفهم من هذا انه يريد : من اعترف لى بالملك نال هذا الجزاء حتى لو لم يطعنى وإن لم يقبل قوانينى ، اللهم لا .

هذا هو التوجيه الأول لهذه الأحاديث وهو توجيه جيد : وهناك توجيه آخر وهو أن يقال : كان أناس يؤمنون بالله ورسوله ، فيموتون أو يقتلون فى سبيل الله قبل أن يدركهم وقت الأعمال ، وقبل أن يعملوا لأن الاجل لم يمهلهم ، فهؤلاء يدخلون الجنة ويحرمون على النار ؛ وقد حصل ذلك لأناس فى عصر النبوة ماتوا فى سبيل الله قبل أن يصلوا ويصوموا ويحجوا ؛ فقال فى حقهم ذلك .

مخاطبة الرسول للاموات

روى البخارى ومسلم أن رسول الله (ص) أمر بأربعة وعشرين صنديدا من صناديد قريش يوم بدر فقذفوا فى طوى من أطواء بدر ، وقام على الطوى ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم « أيسركم انكم أطعتم الله ورسوله فإنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا » فقال عمر بن الخطاب «ما تكلم من أجساد لا أرواح لها فقال (ص) « والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع منهم لما أقول » .

يستدل فريق نشأ فى حجر البدعة والخرافة بهذه القصة على بدعهم ؛ وعلى لجوئهم إلى الموتى رغبا ورهبا ، وعلى ما يأتون عند القبور مما ينبو عنه الذوق والعقل والدين ، ويقولون : إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الموتى الكفار فكيف لا ندعو الموتى المؤمنين وإذا كانوا يسمعون فلماذا نعارض فى دعاء من يسمعون ؟

وعلى ذلك فعلوا ما فعلوا من هذه المنكرات التى سودت وجه الدين والمتدينين ، وجعلت للاعداء مقدحا فى دين التوحيد

وكان من آثار هذه الخرافات المنكرة أن انصرف كثير من شباب الاسلام المثقف عن دينه أنفة منهم أن يدينو دينا يدعو إلى جعل الموتى هم الملتجأ واليهم المفزع ، وإنما وقعوا فى ذلك لقلة علومهم بالدين ، ولأنهم لا يعرفون الدين إلا انه هو ما عليه هؤلاء المتمشيخين ؛ ونحن نعلم بالضرورة والاستقراء والاجماع السلبى ان رسول الله (ص) وأصحابه والتابعين ومن بعدهم من أئمة الهدى ما كانوا يفعلون شيئا مما يفعله هؤلاء لدى أضرحة الصالحين ؛ بل نعلم ان القرآن والسنة جاءا لإبطال ذلك كله وتطهير الوجود منه .

ولقد يلزمنا العيب والسبة إذا حاولنا أن نقيم الأدلة على بطلان هذه الخرافات الوثنية ونكون كمن قام يدلل على أن الشمس أضوأ من القمر

والذى نقوله الآن هو أن حديث خطاب رسول الله لكفار قريش الذين رموا فى الطوى لا يدل على أكثر من وجود العالم الروحانى ، وأنه قد يدرك الخطاب والنداء ، ولكن لا يدل لهؤلاء المخرفين وجود العالم الروحانى وسماعه بعض

الاوقات على أنه يجوز الاستعانة به ، وذلك انه لا يلزم من سماعه أن يكون قادرا على ما يطلب منه ؛ ولا يلزم إذا قدر عليه أن يكون مأذونا له فى التصرف .

ثم ألا يكفى هؤلاء علما ببطلان دعواهم ودعائهم أنهم مهما دعوا وألحوا فى الدعاء لا يجابوا (ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ؛ فإن فعلت فإنك إذاً لمن الظالمين) (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون) على أن الحديث نفسه يرد دعواهم الكاذبة وذلك انه يقول : انهم ليسمعون ولكنهم لا يجيبون ومن لا يجيب كيف يدعى لو يتدبرون

وقد روى البخارى فى صحيحه عن قتادة وهو إمام كبير ، ان الله تعالى أحياهم له فى تلك الساعة توبيخا لهم وإيلاما وحسرة . .

وصح عن عائشة أنها أنكرت رواية عمر وابنه عبد الله أن النبى صلى الله عليه وسلم وقف على قتلى بدر من المشركين وقد رموا فى بئر هنالك فأخذ يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ؛ فلما قيل له فى ذلك ؛ قال إنهم يسمعون ولكن لا يجيبون ؛ وقالت ان ابن عمر وهم ؛ وإنما قال النبى (ص) انهم ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق ، وقرأت (إنك لا تسمع الموتى) وقوله (وما أنت بمسمع من فى القبور) .

(تحقيق ما قيل فى حديث الاعمى)

وهنا شبهة تعلق بها المتهوسون ، وافتتن بها المضللون وهى حديث الاعمى المشهور ؛ فسنذكر رواته ، وما ذكره العلماء فيما جاء فيه وفيمن رواه ، ونختم هذا بأصح ما قيل فى سنده ، عسى أن يكون هذا خاتمة الكلام على هذا الحديث لا سيما فى هذا الزمن المادى البحت الذى استطاع فيه الغرب صنع القنبلة الذرية ، فيترك المسلمون ما تعلقوا به من أوهام ؛ وافتتنوا به من ضلالات مخزيات وحكايات وترهات :

قال أبو عيسى الترمذى فى جامعه من أبواب الدعوات : حدثنا محمود بن غيلان حدثنا عثمان بن عمر حدثنا شعبة عن أبى جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله أن يعافينى ، قال إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك ، قال فادعه ،

قال فأمره أن يتوضأ وأن يحسن وضوءه ، ويدعو بهذا الدعاء « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى . اللهم شفعه في » هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر ، وهو غير الخطمي — هذا لفظ الترمذي .

وأخرجه ابن السني وفي آخره : قال عثمان بن حنيف : وما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل كأنه لم يكن ضريراً قط .

ورواه آخرون من أصحاب المسانيد غير أن صاحبي الصحيحين البخاري ومسلما ، أعرضا عنه ولم يروياه

وهذا الحديث من شبهات القوم وحججهم على باطلهم وعلى جواز دعوة الأموات والاستغاثة بهم ، وعلى جواز التوسل والسؤال بذوات الأنبياء وذوات الصالحين ، وعلى جواز كل ما يأتون به حول القبور من الضلالات والجهالات .

أما استدلالهم به على دعاء غير الله من الأموات والغائبين فمن أمر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الضرير بعد الوضوء والصلاة أن يدعو وأن يقول في دعائه « يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي لتقضى » .

وأما استدلالهم به على جواز التوسل والسؤال بالذوات والأنبياء والصالحين والميتين فمن أمره الضرير أن يقول في دعائه « وأتوجه إليك بمحمد نبي الرحمة ، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي » .

(اجمال علل الحديث)

أولا ـ جهالة أبي جعفر هذا المنفرد به عن عمارة بن خزيمة ، وعن أبي أمامة ابن سهل بن حنيف واختلاف الناس فيه ، إذ زعم فريق أنه الخطمي وزعم فريق آخر أنه سواه ، ولم يظهر لنا أصح القولين ، فوجدنا أن التوقف بين القولين هو المصير الصحيح .

ثانياً ـ تفرد ذلك الراوي المجهول المختلف فيه به دون غيره من أقرانه وممن هم أكثر منه حديثا وتحديثا ، وأكثر اجتماعا بعمارة وبأبي امامة ، وقد كان المظنون أن يرويه سواه إذا كان صحيحا .

ثالثاً ـ انفراد عثمان بن حنيف به فلم يحفظ أنه روى عن أحد سواه من الصحابة لا عمن هم أكثر منه رواية ولا عن ذلك الأعمى الذى رد الله له بصره بدعوة رسوله ولا عن أقارب الأعمى وعارفيه ممن عرفوا القصة والمعجزة حقيقة، فهذا الانفراد بالحديث مع أنه من أحاديث المعجزات المادية المخبرة عن حدث من الاحداث التى تكثر رواتها ورواياتها عادة مما يزيد الشك فى صحة القصة ووقوعها والتفرد وحده لا يقضى برد الحديث عندنا ، ولكن التفرد مع جهالة الراوى المنفرد به ، ومع ما تقدم من الكلام فى الحديث يتألف منه شك يقف الطالب للحقيقة والمعرفة حيران بين الرد والقبول ولا مناص حينئذ من الرد والطرح ، لأن الدين لا يكفى فى اثباته أمثال تلك الروايات المجهولة .

رابعاً ـ غرابة معنى الحديث وشذوذه عما عرفه الخاص والعام من أصول الاسلام وفروعه ، وعما علم بالضرورة منه ، فإن سؤال الله بخلقه كأن يقال يا الله أسألك بفلان أو أتوجه إليك بعبدك فلان أو بنبيك فلان ونحو ذلك ، لم يعهد مثله فى كتاب الله أو فى سنة رسوله (ص) ولا عن أحد من الصحابة أو الائمة ، وما نقل شىء من هذا النوع إلا ماجاء فى الاخبار الباطلة الموضوعة كحديث سؤال آدم ربه بمحمد ، وكحديث السؤال بحق السائلين ، وحق الممشى إلى الصلاة ، وهو حديث غير صحيح ، ومعناه إذا صح ، خلاف ما نحن بصدده .

وكرواياتهم « إذا سألتم الله فاسألوه بجاهى ، فإن جاهى عند الله عظيم » وهذا لا أصل له ، وكالرواية التى رواها عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانت اليهود بخيبر تقاتل غطفان ، وكانت يهود تهزم فعاذت بهذا الدعاء (اللهم نسألك بحق محمد النبى الامى الذى وعدتنا أن تخرجه فى آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم) قال فكانوا إذا التقوا دعوا به ؛ فهزموا غطفان ؛ وهى رواية باطلة ، وعبد الملك هذا ضعيف كما قال أحمد والطبرانى ، وقال يحيى : كذاب ، وقال أبو حاتم : متروك ، وقال ابن حبان يضع الحديث ، وقال أبو نعيم الحافظ يروى عن أبيه مناكير ، ودين الله أجل من أن يحتج له برواية مثل هذا ، وأما أبوه هرون فضعفه قوم ووثقه آخرون .

فالروايات التى فيها السؤال بحق المخلوق كلها اما ضعيفة جدا أو موضوعة ،

ومثل تلك الروايات لا يحل بها حكم من أحكام المياه والوضوء والحيض والطهارة ؛ فضلا عن أن يثبت بها قاعدة من قواعد الإسلام ومناجاة الله وسؤاله ، والاتصال به ، أما الروايات الصحيحة فلم يجيء فى شيء منها شيء من ذلك .

وأبواب الدين أصوله وفروعه كلها جاءت فيها الآيات والأخبار الصحيحة التى لا يختلف المسلمون فى صحتها وصحة نسبتها إلى النبى صلى الله عليه وسلم إلا هذا الباب : باب سؤال الله بالمخلوق وبجاهه وذاته وحرمته ، فما جاء فيه حديث سلم من النقد والتجرح مما لا تثبت به قاعدة نحوية فضلا عن دينية .

فالكلمة الأخيرة الفاصلة فى هذا الحديث الأعمى أنه حديث ضعيف باطل لا يحل الاحتجاج به ، أما تصحيح من صححوه فليس بحجة وفى سنده ما ذكرناه من النقد والقدح ، والذين صححوه كلهم من المتساهلين فى التصحيح والنقد أمثال الترمذى والحاكم ولا سيما فيما يتعلق بأبواب المعجزات والفضائل ، أما الحاكم فلا يعتد بتصحيحه فى المستدرك لأنه قد صحح الأحاديث التى أجمع أهل الحديث على أنها موضوعة مكذوبة ، وأما الترمذى فتساهل أيضا جدا حتى أنه صحح أحاديث من أجمع على ضعفهم وضعف حديثهم ، وجامعه ملآن بالأحاديث الضعيفة التى زعمها حسنة أو صحيحة .

﴿ عرض الأعمال على الرسول ﴾

روى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أنا فرطكم[1] على الحوض ؛ ليرفعن إلىّ رجال منكم حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا[2] دونى فأقول أى رب أصحابى ، يقول لا تدرى ما أحدثوا بعدك » .

هذا الحديث الصحيح الثابت ينادى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدرى عن أمته بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى شيئا ، وهذا يتفق مع قول الرسول الكريم عيسى (وكنت شهيدا عليهم ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم) .

---

(١) الفرط بفتحتين الذى يتقدم .

(٢) خلجت عينه واختلجت : طارت .

ولكن يأبى ذلك عشاق الغلو فى الأنبياء والصالحين ويقولون انه صلى الله عليه وسلم تعرض عليه أعمال أمته بعد انتقاله ، ويذكرون حديثا ضعيفا جدا « حياتى خير لكم ومماتى خير لكم . . . تعرض علىّ أعمالكم ، فإن وجدت خيرا حمدت الله وإن وجدت غير ذلك استغفرت لكم » وهو حديث لا يجوز عقلا ولا شرعا أن يقف أمام حديث البخارى ومسلم[1] .

وينقضه (أولا) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صبر وصابر وجاهد فى الله حق جهاده ، فهو الآن فى نعيم مقيم جزاء ما قدم ، فلو علم ما عليه أمته اليوم من زنا وربا وخمر ورقص وفساد لكان فى غم ونكد .

(وثانيا) ان آخره فيه تجرئة على المعاصى دون مبالاة اعتمادا على استغفار النبى للعصاة ، وهذا ينافى المعلوم من الدين بالضرورة

---

(١) قد أشبعه طعنا وتجريحا كثير من المحدثين منهم إمام الحرم المكى فى (الرسالة المكية فى الرد على الرسالة الرملية) وصاحب المنار فى مؤلفاته .

احاديث التصوير

تكاثرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن الصور ، وذم المصورين ؛ وأوعدهم بغضب الله فقال صلى الله عليه وسلم « ان أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » وقال غير ذلك ؛ كله ثابت عنه ؛ وكان عليه السلام لا يدع فى منزله صورة إلا هتكها ومزقها ، ولم يفرق بين أنواع الصور ، ولم يمنع المجسمة ويبيح غيرها كما توهم بعضهم بل الاخبار عنه تدل على أنه لا فرق بين ذلك .

هذه الاخبار تلقاها المسلمون فى صدر الإسلام فسهل عليهم العمل بها ، ولم يجدوا بينهم وبين العمل بها مانعا ، فلما جاءت الحضارة الحاضرة بفنونها وانتشرت الصور فى كل بيت وفى كل جدار ؛ حينئذ وجدوا هذه الاحاديث مشكلة ؛ ووجدوا العمل بها لا يستطاع ، فالتصوير لازمة من لوازم الحياة اليوم ، يحتاج إليه فى الطب وفى السفر ، وفى ضروب من العلم .

حينئذ انقسم الناس إلى مانعين اطلاقا . وإلى مجيزين اطلاقا . وهذا افراط وتفريط . أما الاعتدال والانصاف فيقتضى أن يمنع كل ضار بالامة فى دينها ومالها وأخلاقها . فمن السفه والحمق أن نبيح إقامة هذه التماثيل التى تمحق مال الدولة فى غير ما ينفع بل يضر وكذلك يمنع صور النساء العاريات فإنها أكبر معول فيها أصابنا من انحلال وفساد . أما الصور التى تلزم فى الطب وغيره فلا مانع منها إذ لا يتناولها الحديث لانها لم تكن موجودة فى عصر النبوة والنفع فيها متحقق . والفتنة منتفية .

﴿ تم الكتاب والحمد لله رب العالمين ﴾

الفهرس

٤ أفعال العباد ونسبتها تارة إليهم وتارة إلى الله وفيه الجمع بين آية (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله) وبين آية (ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) .

١٠ القضاء والقدر أو الجبر والاختيار .

١١ الإنسان والاقدار وأنواعها .

٢٣ الكلام على حديث احتج آدم وموسى عند ربهما .

٢٤ الكلام على حديث ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة .

٢٦ المشكلة الثانية . تفسير آية (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) تحقيق مسألة الغرانيق .

٣٧ تفسير (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) .

٣٩ قتال المسلمين لغير المسلمين .

٤٠ أسباب أول غزوة وما تلاها من غزوات .

٤٣ سرد تاريخى قرآنى لأسباب القتال فى الأمم السابقة .

٤٩ القتال ليس من خصائص الاسلام .

٥١ آيات فى مقاطعة اليهود والنصارى أساءوا فهمها .

٥٤ معنى قوله (ص) أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا .

٥٦ الجزية ولماذا فرضها الاسلام .

٥٨ قصة داود عليه السلام وتزييف ما أحيط بها من الأكاذيب .

٦٤ بيان معنى (لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) مع وجوب الأمر بالمعروف .

٦٥ هل اشرك آدم وحواه .

٦٨ رؤيته تعالى فى الآخرة

٧٣ بيان معنى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم)

٧٦ هل ينتفع الأموات بعمل الأحياء ، وهل يتأذى الأموات بعمل الأحياء

٨٦ سنن الله الكونية : هل تتغير ؟ وما معنى الكرامة
٩٠ هل نار الآخرة إلى فناء ؟
١٠٤ قصة السامرى
١٠٦ إبليس : كيف أمر بالسجود لآدم وهو ليس من الملائكة
١٠٧ الأبواب التى فتحها الاسلام لتحرير الرقيق
١٠٨ إشكالان فى الزكاة
١٠٩ إشكالات قرآنية والجواب عنها لعلامة القصيم
١١٤ هم يوسف عليه السلام
١١٨ هل اليهود والنصارى ناجون فى الاخرة
١١٩ فتنة سـليمان
١٢١ وجوب العمل بالحديث النبوى وتفنيد شبهات خصومه
١٢٨ ابن تيمية يجيب عن حديث « وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن
١٣٠ أحاديث الدجال
١٣٣ بئس أخو العشيرة
١٣٤ حديث لا عدوى ولا . . .
١٣٥ نحن أولى بالشك من إبراهيم ، هل تؤاخذ بخواطر النفس
١٣٦ أكل الكافر فى سبعة أمعاء
١٣٧ لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .
١٣٨ تحريم من قال لا إله إلا الله على النار
١٤٠ مخاطبة الرسول للاموات
١٤١ تحقيق ما قيل فى حديث الاعمى
١٤٤ عرض الاعمال على الرسول
١٤٦ أحاديث التصوير